حكايات بنات

* الكتاب: حكايات بنات (مجموعة قصصية)
* الكاتبة: نهى جمال
* مراجعة لغوية: قسم التحرير والمراجعة بدار المنتدى
* تصميم الغلاف: قسم الجرافيك بدار المنتدى
* إخراج داخلي: القسم الفني بدار المنتدى
* رقم الإيداع: 16597/ 2022
* الترقيم الدولي: 978-977-86240-0-7

المدير العام: عزيز عثمان
لمراسلة الدار: **daralmuntadaa@gmail.com**
واتس آب: 01005186476
صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع

صدر عن دار العنقاء للنشر والتوزيع
بالتعاون مع دار المنتدى للنشر والتوزيع











(مجموعة قصصية)

حكايات بنات

(مجموعة مواقف حياتية من أرض الواقع)

للكاتبة

نهى جمال





مقدمة

الدنيا لم تكن يومًا سهلة، ولكن في الآونة الأخيرة لاحظنا جميعًا أن الجميع يعاني، كمية الطاقة السلبية المنتشرة في الأجواء أصبحت تؤثر على الجميع.

لا أقابل أي شخصٍ إلا وأجد أنه يشكو، وبما أن أصدقائي اعتادوا مني الاستماع إلى مشكلاتهم دوما؛ فكمية الاتصالات التي تلقيتها في الفترة الأخيرة مذهلة حقًّا، كل شخص يعاني بطريقة مختلفة، فالسعادة أصبحت عملةً نادرةً ومن يبحث عن الحياة المثالية الخالية من المشكلات فهو شخص ساذج جدًّا.

لاحظنا أيضًا ارتفاع نسب الطلاق بطريقةٍ غير مسبوقة في الفترة الأخيرة. القصص التي تم عرضها في هذا الكتاب جميعها واقعية، ومنها ما يعرض معاناة الأزواج وبعض المشكلات التي تسبب انتهاء الحياة الزوجية وتؤدي إلى الطلاق .

قد يجد بعض القراء تشابهًا كبيرًا بين بعض المواقف وبين حياتهم الشخصية، تم تغيير بعض التفاصيل حفاظًا على خصوصية أصحاب القصص.

الحب لم يكن أبدًا سببًا كافيًا لنجاح الحياة الزوجية.

إهداء

إلىٰ أمي وأبي

أتمنىٰ أن أكون قد نجحت في جعلكما تشعران بالفخر.

إلىٰ زوجي الحبيب

شكرًا لمساندتك لي وتحملك تقلباتي المزاجية.

إلىٰ أبنائي

بحبكم بجد وربنا يهديكم.

إلىٰ أصدقائي

شكرًا علىٰ أنكم كنتم السبب في ظهور هذا الكتاب بأفكاركم وقصصكم.

❋❋❋❋



(١)

أغاني الست

استيقظت اليوم غير مصدقة أننا أخيرًا في آخر خميسٍ من شهر مايو لعام ١٩٤٥.

كنت أنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر منذ أن علمت أن أبي قد حجز لنا في السينما لحضور فيلم (الست) الجديد "سلامة"؛ فجهزت فستاني الأزرق الجديد وحذائي ذا الكعب، واخترت تسريحةً جميلةً لأكون مبهرة وأنا ذاهبةٌ إلىٰ حفلة السيدة (أم كلثوم).

وصل أبي بسيارته بكامل أناقته، ببذلته وطربوشه المنفوخ في تمام الثامنة والنصف، لنصل إلىٰ السينما قبل حفلة التاسعة بوقتٍ كافٍ.

السعادة تغمرني والحماس يسيطر عليَّ؛ فأنا حقًّا أعشق السيدة أم كلثوم وأحيا علىٰ أغانيها. بدأت أحداث الفيلم واستمتعت كثيرًا بمشاهدته في صمتٍ مهيبٍ يليق بأغاني الست، أكثر أغنية أعجبتني كانت أغنية "عن العشاق سألوني"، والتي كانت تعبر جدًّا عن مشاعري في الفترة الأخيرة؛ بالأحرىٰ منذ أن رأيته لأول مرة في مكتب والدي، إنه (منير أفندي).



اسمٌ موسيقيٌّ وشكلٌ جذابٌ لفت انتباهي من النظرة الأولىٰ؛ فأصبحت دائمة الذهاب إلىٰ مكتب والدي لأراه، تتملكني رعشةٌ لذيذةٌ عندما يقبِّل يدي قائلًا:

- بونجور مدموازيل رقية.

فأتلجلج وأفقد تركيزي لأرد بتلعثم:

- بونجور.

أشعر بالخدر عندما يشد علىٰ يدي الرقيقة وهو يقول مودعًا:

- سعيدة.

أفكر فيه دائمًا عندما أستمع إلىٰ أغنية "عن العشاق" للست، فيذوب قلبي مع كلماتها وكأنها تردد ما بداخلي فأسرح معها وأفكر مئات المرات: هل ما أشعر به تجاهه هو فعلًا ما يسمي بالعشق؟ هل يعلم بمشاعري تجاهه؟ هل تفضحني عيناي عندما أراه؟ يا ويلي! كيف يمر كل هذا الوقت دون أن يبوح لي بمشاعره تجاهي؟ أو يا ترىٰ أنني أتوهم؟ أم أنه خجول؟

لا، أنا متأكدة أنه يشعر بشيء تجاهي، نظراته إليَّ غير بريئة، أشعر بسهامها الحارقة عندما ينظر باتجاهي وأبي يوقِّع بعض الأوراق؛ فتحمر وجنتاي وأنظر إلىٰ أصابع يدي التي ما تلبث أن تتحرك بعصبية في راحتي يدي.

عن العشاق سألوني

وأنا في العشق لا أفهم

سمعناهم يقولوا العشق

حلو حلو وآخره علقم

سهاد في الليل وويل علىٰ ويل

وشيء منه العذاب أرحم

إذًا فتفكيري المستمر في منير أفندي وسهري وعذابي هو حقًّا عشق.

ثم أعود من شرودي لأحترق بكلمات الست:

ومن أعلن هواه يتعب

ومن خبأ هواه يغرم

قولوا قولوا مين من العاشقين

وهب قلبه ولم يندم

لن أنسىٰ أبدًا يوم أن حضرت اجتماعًا لأبي مع بعض العمال، من بينهم (منير أفندي)، مختلسة النظر إليه، حتىٰ أخذتني أفكاري لشكلي بالفستان الأبيض جالسة بجواره في الكوشة، محاطين بصفين من الراقصات و(فريد الأطرش) قد أتىٰ ليحيي حفل زفافي علىٰ منير أفندي، مجرد التخيل جعل قلبي يدق سريعًا حتىٰ كاد يتوقف من السعادة، وارتسمت علىٰ شفتي ابتسامةٌ رقيقةٌ؛ فسندت وجهي إلىٰ



راحتي واستندت بيدي إلىٰ مكتب والدي، لأفيق من حلمي الوردي فجأةً علىٰ صوت أبي يناديني بغضب:

- رقية.. اذهبي حالًا إلىٰ البيت وسألقاكِ هناك.

ارتعشت من صوته ونفذت أمره في الحال؛ فلا بد أنه قد لاحظ شيئًا وإلا فما غضب فجأة.

جلست في غرفتي بالقصر مرتعدة، قلبي سيتوقف من الرعب الآن في انتظار أبي بعد أن كاد يتوقف من السعادة منذ لحظات قليلة، لا.. لن أتحمل هذه المشاعر المتناقضة، ربي.. كن معي.

عاد أبي إلىٰ المنزل ليفتح باب غرفتي بعصبيةٍ قائلًا:

- إيه اللي عملتيه النهارده في مكتبي ده يا بنت؟
- عملت إيه يا بابا؟

لأجد كفه علىٰ وجنتي في صفعة فجائية صادمة.

- أنا شايفك وانتي بتبصي بنظرات غير بريئة لمنير أفندي، وكمان كنتي سرحانة وبتبتسمي. هي حصَّلت؟!

نظرت إلىٰ الأرض بخجل دون رد.

- بنتي أنا ممكن تبص لعامل عندي؟ منير أفندي إيه اللي بنتي أنا تبصله؟ بنت (شوكت باشا) اللي بيتمناها ولاد باشاوات البلد تبص لحته أفندي؟ هزلت!



هددني أبي إن خرجت من المنزل لأي سبب، وأنه خلال أسبوع سيجد لي العريس المناسب خوفًا من أن أفضحه وسط الطبقة الراقية.

لم أعرف فيما أفكر، ولكن حيرتي من غموض منير أفندي كانت كبيرة، لماذا يتركني في عذابي؟ لماذا لم يحاول أن يعبر عن مشاعره ولو بتلميح بسيط؟ لماذا لم يتكلم مع والدي؟

ترددت كلمات الست في أذني وأنا أرثىٰ عذابي في عشقي:

عن العشاق لا نسأل

وخلينا بعيد بعيد أسلم.

هل أستمع إلىٰ نصيحة أم كلثوم وأبقىٰ بعيدة فعلًا؟ أم أحاول أن أتكلم معه وأطمئنه أنني أبادله مشاعر الحب وأشجعه أن يتكلم مع والدي لنتزوج، وأنني لن أتخلي عنه؟

خرجت في اليوم التالي حوالي الساعة السابعة مساءً ولكنني لم أذهب إلىٰ مكتب والدي كالعادة خوفًا من ردة فعله بعد ما حدث بالأمس، بل ذهبت إلىٰ نادي الجزيرة لأقابل صديقتي علّي أجد لديها نصيحة تنفعني بها؛ فهي دائمًا ما اعتادت الذهاب إلىٰ النادي كل جمعة في نفس الموعد، وما إن دخلت إلىٰ النادي حتىٰ سمعت السيدة أم كلثوم في الراديو تردد:

كل الأحبة اتنين اتنين

وانت يا قلبي حبيبك فين



لأعتبرها علامة، فأخذت أبحث عن (خديجة) صديقتي حتىٰ أستطيع أن أبث إليها مشاعري ومخاوفي التي أخذت تنغص حياتي، وإذا بي ألتفت لأراه.. منير أفندي. نعم، يجلس أمامها.. يحتضن يدها بين يديه، يهمس إليها، وتعبيرات وجهيهما عكست حالة الهيام والعشق التي يعيشانها لدرجةٍ أنستهم كل من حولهما. لم يرني ولا هي أيضًا، وأحمد الله علىٰ ذلك.

لمت نفسي علىٰ سذاجتي المتناهية، ولملمت خيبتي ومشاعري المكسورة كقطع الزجاج التي تذبحني وستؤلم أيًا كان من يقترب مني في هذا الوقت.

لم أعد أرىٰ شيئًا أمامي بعد أن غطَّت دموعي مقلتيَّ لتحجب الرؤية مثلما حجبت تفكيري، ولكن لم تتوقف قدماي عن السير حتىٰ السيارة، لا أفكر في شيء، أشعر أنني خاوية.. حتىٰ سمعت أم كلثوم تكمل أغنيتها قائلةً:

يا قلبي ده حظك خليك فريد وحدك

اصبر علىٰ كاسك واشرب علىٰ قدك

ييجي الهنا في غمضة العين

والمر يحلي لي

في كاسين اتنين اتنين

وانت يا قلبي حبيبك فين



حينها قررت أن استمع لنصيحة الست وأبتعد، وأستسلم لمصيري القادم مع من سيختاره أبي عريسًا لي من أبناء أصدقائه الباشاوات.

ومنذ ذلك الحين لم أذهب إلىٰ مكتب أبي، ولم أرَ منير أفندي مرةً أخرىٰ، وأعيش فقط علىٰ ذكرياتي مع أغاني الست.

****



(٢)

أميرة القلوب

(شمعة في مهب الريح)

ظهـرت اليـوم نتيجـة تنسـيق الكليـات والتحقـت بكليـة الآداب، لقـد دُمِّـر حلمـي بالالتحـاق بكليـة طـب الأسـنان بسـبب درجـة واحـدة فقـط! نقلتنـي هـذه الدرجـة إلـىٰ الأقـاليم، الأمـر الـذي كـان مـن المسـتحيل تحقيقـه مـن وجهـة نظـر أمـي وأبـي. لا أعلـم كيـف يفكران بهذه العقلية في الألفينات.

وبعد مناقشات كثيرة لم تسفر عن أي تغيير في قرارهم، قـررت أن أبـدأ حياة جديدة بأحلام جديدة؛ فهي ليست نهاية العـالم أن تخسـر حلمًـا، بل علينا أن نبني حلمًا جديدًا لتحقيقه.

وفي أول يومٍ دراسيٍّ استقبلني مجموعة من طلاب الفرقة الرابعة بكلية الآداب ممـن تطوعـوا لمسـاعدة الطـلاب الجـدد، كـان مـن بيـنهم (محمـود)، ذا البشـرة السـمراء والشـعر المجعـد والعينين العسـليتين. مثالٌ حيٌّ لفتىٰ أحلامي كفتـاة في نهايـة مرحلـة المراهقـة، وكـأي فتـاة مصـرية أصـيلة في عـام ٢٠١٠، قـررت أن يكـون (محمـود) هـو هـدفي الجديد وحلمي الـذي أسعىٰ خلفـه، بلغـة زمننـا هـذا «أكـراش عليـه»،



نعم.. حلمي الجديد أصبح (محمود) وليس (التخرج). لن أسمح بضياع حلمي بمحمود كما ضاع حلمي بأن أكون طبيبة أسنان، يجب أن أجتهد وأضع الخطط لأجذب محمود إليَّ وأجعله يشعر بحبي له؛ فبدأَت رحلتي للاستحواذ على قلب محمود من (الفيس بوك)، بحثت كثيرًا عن (أكونت) محمود حتى وجدته، ثم أرسلت إليه طلب صداقة من (فيك أكونت) وأرسلت له الرسالة التالية:

"مساء الخير، أنا ندى من الإسكندرية، ١٩ سنة. ممكن نتعرف؟

لفت نظري عمق (بوستاتك) على الفيس وأحب نكون أصدقاء".

أعرف أنها طريقة قديمة للتعارف ولكنها ما زالت تؤتي بثمارها، وبالفعل قبِل صداقتي، واستطعت بكلامي المعسول ومعرفتي لشخصيته من اختلاطي به في الجامعة –فقد كنت لا أفوت اجتماعًا للأسرة بالجامعة إلا وأحضره حتى أتأكد أنه لا يرى أحدًا غيري، ولأتعرف عليه أكثر عن قرب– أن أجذبه لي؛ فأصبح لا ينام إلا بعد مكالمتنا الليلية، وأصبح شديد الإلحاح في طلبه لمقابلتي ومعرفة كل شيء عني. كنت أعطيه بعض المعلومات الحقيقية البسيطة عني المغلفة بالغموض، لأنني أريده أن يحبني، واستمر بنا الحال على هذا المنوال خلال عامي الجامعي الأول –والذي هو عامه الأخير– حتى وافقت أخيرًا على أن أقابله يوم ظهور النتيجة ليعرف من أنا.



- ندى! هو انتي فعلًا؟ إزاي ماقدرتش أعرف كل الفترة دي؟ أنا كنت واخد بالي من نظراتك وطريقة كلامك في اجتماعات الأسرة، بس ماتخيلتش إن انتي وندي نفس الشخص.
- أنا كنت بحاول على قد ما أقدر إنك ماتحسش إن أنا؛ علشان كنت حابة أتأكد من مشاعرك الأول، ودلوقتي أديك عرفت إن انت الكراش بتاعي، ها! إيه رأيك بقى؟
- رأيي؟ رأيي إن ده من حظي طبعًا.

وضحكنا معا واحتضن يدي بيده وحاوط خاصري بذراعه، خارجين من مبني الجامعة إلى أقرب كافيتيريا تجمع المحبين، لنبدأ قصة حبنا في الواقع وليس في العالم الافتراضي. والآن أصبح من السهل أن يكون هدفي الجديد هو (التخرج) بعد أن أصبح لدي حافز.
مرت السنوات وعشنا أجمل قصة حب وتزوجنا وأنجبنا.. ولكن لا شيء يبقى كما هو.. تغير محمود، وتغيرت أنا، وتغيرت حياتنا.
أين ذهبت قصة حبنا الأسطورية؟ أين ذهب حلمي الذي ظننته تحقق؟ كيف تسرب حلمي من بين يدي كماء البحر؟ كيف تهدم طموحي الذي سعيت جاهدة إلى الوصول إليه؟ أم أنني السبب في ضياعه؟ هل فعلًا أنني لم أستطع المحافظة عليه بإهمالي لمحمود واهتمامي أكثر بأطفالي؟ ولكنهم أطفال.. في النهاية النتيجة واحدة.



بعـد ١٠ سـنوات، تحـول الحلـم الـوردي بالحيـاة السـعيدة وفكـرة الـ(Happily ever after)، إلـىٰ: كيـف عليـكِ أن تتعلمـي الحيـاة كـ(Strong Independent woman).

أسندت ظهري ورأسي إلىٰ ظهر السرير، لقد تعبت، أشعر بجسدي ينهار، أعاني من الأرق الشديد فلم أنم منذ ثلاثة أيام، لا أستطيع.. أريد أن أنـام ولكـن الموضـوع صـعب. أشـعر بـأن رأسـي مكـتظ بالأفكـار، أشعر بضوضاء داخلي، الكثير من الأحداث والأمور التي تمر بـذهني وكأنه شريط سينمائي، لا أتحمل الصوت أو الضوء، أرغب فقط في أن أستمع لصوت الصمت، أريد أن تتوقف الضوضـاء بـداخلي، أريـد أن أنااام.

أدرت رأسي بصعوبة لأجد أحد أدراج مكتبي مفتوحٌ ويظهر منه طرف مجلـةٍ قديمـة. تـذكرت حـين كنـت مراهقـةً وكنـت مهووسـةً بشـراء المجلات الفنية والتي تعرض أخبار المشـاهير، مثـل (أخبـار النجـوم) و(Teenstuff) وغيرهـا. كنـت أدخـر مصـروفي الأسـبوعي لأشـتري الأعـداد الجديـدة مـن هـذه المجـلات كـل أسـبوع، قـررت أن أسـتعيد الذكريات فربما انشغل تفكيري بشيء آخر أو نمت. مددت يـدي دون أن أحرك جسمي من علىٰ السرير لأرىٰ عناوين هذه المجلـة القديمـة، وما الذي أثار انتباهي بها منذ سنوات كثيرة مضت.



"معاناة الأميرة ديانا بصمت خلال خيانة الأمير تشارلز لها مع حبه الأول كاميلا".

يااه! الأميرة (ديانا).. تذكرت الآن كم كنت أبحث في أخبارها طوال السنة الأخيرة لي في الجامعة، وذلك بعد أن قررت أن يكون مشروع تخرجي في ترجمة نص صحفي عنها؛ فتجهزت لمشروعي بجمع أكبر قدرٍ ممكنٍ من الأخبار الخاصة بالأميرة ديانا.

كان تاريخ المجلة يعود إلىٰ ربيع ٢٠٠٦، عندما بحثت عن أخبارها أشفقت عليها كثيرًا، لدرجة أنني بكيت علىٰ مصيرها البائس.. كنت أرثىٰ حالها متخيلة العذاب الذي عاشته، كنت أتعجب من تحملها كل هذا الوجع والقهر، ضحكتُ متهكمة؛ فلم أكن أتخيل يومًا أنني سأكون مكانها وأعاني نفس العذاب.

تذكرت أخبار اكتشافها خيانة زوجها.

تذكرت أخبار محاولاتها لجذبه إليها ولفت انتباهه وشحذ اهتمامه، والتي وصلت لإيذاء نفسها.

تذكرت أخبار محاولاتها إظهار السعادة أمام الجميع رغم انهيار العلاقة بينهما.

تذكرت أخبار اكتشافها علاقته بحبيبته الأولىٰ وبمربية أولادها.



تذكرت الكثير والكثير.. كما تذكرت مأساتي التي تشبهها ولا تختلف عنها كثيرًا.

تذكرت اكتشافي خيانة زوجي لي.

تذكرت محاولاتي المستميتة لإرجاعه، وأوجعني فشلها وفشل حياتي معها.

تذكرت محاولة إخفاء حزني وانهياري أمام أقرب الأقربين لنظهر بمظهر أسعد زوجين.

تذكرت كل المرات التي ضحيت فيها بسعادتي وراحتي وسلامي من أجل من حولي، وأولهم أولادي.

تذكرت كل المرات التي حاولت فيها ابتلاع مرارة القهر والشعور بالوجع وكسرة القلب.

تذكرت أنها حقا كانت كشمعة في مهب الريح.

Goodbye، Norma Jeane
Though I never knew you at all
You had the grace to hold yourself
While those around you crawled
They crawled out of the woodwork
And they whispered into your brain
They set you on the treadmill
And they made you change your name.

And it seems to me you lived your life
Like a candle in the wind
Never knowing who to cling to
When the rain set in



And I would’ve liked to know you
But I was just a kid
Your candle burned out long before
Your legend ever did

Loneliness was tough
The toughest role you ever played
Hollywood created a superstar
And pain was the price you paid
Even when you died
Oh، the press still hounded you
All the papers had to say
Was that Marilyn was found in the nude

أمام الجميع كنت حقًّا (أميرة القلوب)، محبوبة من الجميع إلا الرجل الوحيد الذي أحببته.

أمام الجميع كنت المرأة القوية (Strong woman) التي تنعم بالسعادة والنجاح.

أمام الجميع كنت حقًّا (Princess Diana)، يا لسخرية القدر! كيف لم أنتبه من قبل أن اسمي هو ديانا.

والآن قررت أن أخطو خطواتها آملةً ألا أنتهي نفس نهايتها، قررت أخيرًا بعد وقت طويل من الإنكار، قررت تقبل الأمر؛ فقد تأكدت أخيرًا أن زوجي لن يستطيع التخلي عن عشيقته فهي (حب حياته). كفي.. يجب أن أبتعد عنهما وأبحث عن سعادتي أنا الأخرىٰ، وتذكرت مقولة الأميرة ديانا عندما وصفت حياتها قائلة:



- كنا ثلاثة أشخاص في هذا الزواج، لذلك كان مكتظا بعض الشيء.

نعم.. هذا هو الوصف الصحيح لما أمر به، للأسف هذا الواقع الأليم؛ لذلك عليَّ أن أبتعد لأفسح لهما المجال ولأنعم أنا ببعض الهدوء.

صدقتِ يا أميرة القلوب.

وكما قررت الأميرة ديانا الهروب من حياتها البائسة والبحث عن سعادتها مع شخص يحبها حقًّا، يقدرها، يعلم كم هو محظوظ بحبها له ويعرف قيمة قلبها الذهبي.. قررت أنا الأخرىٰ إنهاء حياتي البائسة.

لن أسمح لمحمود بأن يقنعني أنني السبب في فشل حياتنا والتملص من أخطائه، لن أستسلم لذبولي.. من حقي أن أعيش حياة سعيدة، من حقي أن أحيا كوردةٍ وليس كشمعةٍ في مهب الريح، من حقي أن أعيش.

****



(٣)

أروح لمين؟!

أروح لمين وأقول يا مين ينصفني منك
ما هو انت فرحي وانت جرحي وكله منك
أروح لمين
كلمة ونظرة عين والقسمة وياهم
جمعوا سوا قلبين والحب مناهم
وبين ليالي المنىٰ خدني الهوىٰ وياه
وكان وصالك هنا وكنت بتمناه
وبعد حبي شغلت قلبي وقسيت عليه
وكان منايا يدوم هنايا مادامش ليه؟
لوعني حبك واليوم في بعدك بيفوت سنين
وأروح لمين وأقول يا مين ينصفني منك؟
يطول بعدك وأعيش بعدك علىٰ شوقي وأشجاني

الساعة الثانية عشرة ليلًا. أجلس في شرفة منزلي وبيدي فنجان القهوة، أشربه ببطء وأنا أستمع لصوت السيدة أم كلثوم الذي يثير بداخلي



مشاعر كثيرة متضاربة ما بين الشجن والانكسار والحسرة والندم، أتذكر معها حياتي وكأنها شريطٌ يمر أمام عيني.

كلما نظرت إلىٰ حياتي أجد أنها مليئة بالنعم التي يراها جميع من حولي دون النظر لحياتي من الداخل، فحياتي محط أنظار الجميع وموقع حسدٍ لكل من يعرفني؛ فقد تزوجت حب عمري: رجلٌ وسيم، ناجح، غني، ذوق، محب لأهلي جدًّا. سكنت بجوار والدتي حتىٰ تساعدني وتكون معي دائمًا ولم أبتعد عنها. لي من الأصدقاء والأقارب الكثير حولي دائمًا لأنني شخصية اجتماعية ومحبوبة ولله الحمد.

لا أنكر نعم الله عليَّ ولكنني أرجو ممن يحسد كل هذه النعم أن ينظر إلىٰ ما حُرمت منه، للأسف حرمت من الإنجاب؛ مما جعلني أشعر دائمًا بنقص شيء هام، زوجي الذي طالما تمنيته ابتعد عني ودخل في علاقاتٍ كثيرة، ومع الأسف عندما شكوته لأهلي وأهله أجمع الكل علىٰ أنني (ست معيوبة)، ويجب أن أحمد الله علىٰ أنه لم (يرميني)، وما زال يبقي عليَّ لحبه لي.

عندما شكوت لأقرب صديقاتي وجدت أن لديها ما يكفيها من المشكلات والصعاب في حياتها؛ فلم أرد أن أزيد من همومها. قررت أن أكف عن الشكوىٰ لأي إنسان والاحتفاظ بمشكلاتي لنفسي، مما



تسبب في إصابتي بحالة اكتئاب مزمن، اتجهت إلىٰ الله أبث إليه حزني وهمي وأدعوه كثيرًا أن يلهمني الصبر.

لم ينفعني كل من حولي، لم ينفعني حب زوجي لي، لم تنفعني شخصيتي الاجتماعية، لم ينفعني أهلي وقربهم مني، لم ينفعني أقربائي ولا أصدقائي، لم أشعر بالسعادة. دائمًا ما أشعر بغصة، دوما أشعر بأن سعادتي ناقصة، أتمنىٰ أن يعوضني الله ويلهمني الصبر ويريح قلبي.

ما بين ماضي ماهوش راضي ينسيني وينساني وينساك

وبين حاضر ماهوش قادر يسليني في حرماني

وأبات أنعىٰ.. أنا ودمعي

وأخبي دمع العين وأداري من اللايمين

لا يلمحوا عينه ويشمتوا فيه

ولحد امتي هتبقىٰ انت والشمتانين

ما زلت أفكر ودموعي تجري، هل أقبل حقًّا ما طلبه مني اليوم؟ تذكرت الآن حديثنا معًا هذا الصباح. استيقظت قبل موعده كعادتي لأصلي وأجهز طعام الإفطار، قبل أن أيقظه بقبلة –مثلما أفعل يوميًا– تجهَّز زوجي للعمل وجلسنا معًا نتناول الإفطار، ليبدأ كلامه معي قائلًا:



- بقولك إيه! كنت حابب آخد رأيك في موضوع.
- خير إن شاء الله، في مشروع جديد؟

ابتسم قائلًا بتلعثم:

- هو مشروع جديد، بس مش في الشغل.

نظرت إليه ولم أنطق في انتظار تفسير أوضح لما قاله.

- بصراحة كده، أنا بفكر أتجوز.

فتحت فمي من الدهشة ولم أنطق مرة أخرىٰ. تحرك في اتجاهي، جلس علىٰ ركبتيه أمامي، أمسك بيدي وأحتضنها ليقبلها قائلًا:

- (سها)، أنا بحبك.. والله العظيم بحبك، وماقدرش أستغنىٰ عنك أبدًا.. لكن أنا من حقي أبقىٰ أب، أنا مش حابب أعمل حاجة من وراكي، بس مش عايزك تزعلي مني.

غطت دموعي وجهي.. ماذا أفعل؟ يا رب! ليس لي أحد غيرك ألجأ إليه، ياه علىٰ الوجع.. ماذا عليَّ أن أقول أو أفعل أو كيف أتصرف؟ هل ألطمه علىٰ وجهه علَّه يفيق ويتذكر من أنا؟ هل أصرخ قائلةً: أنا سها.. أنا حب حياتك، أنا من تمنيت أن أكون زوجتك لنحيا ونكبر ونشيخ معًا، هل لم أعد كافيةً لك الآن؟ هل أصبحت تريد استبدالي؟ هل لم أعد لائقة؟



أروح لمين

أروح لمين ومين هيرحم أسايا

وأقول يا مين ومين هيسمع ندايا

طول ما انت غايب ماليش حبايب في الدنيا ديه

والفكر سارح والهجر جارح يا نور عينيه

شوف دمعي جاري سهران في ناري

ولا انت داري بالسهرانين

أروح لمين

"يا رب ماليش غيرك، ارحم عذابي ووجع قلبي، أنا مش هقدر أبعد عنه لإنِّي بحبه، بس مش هستحمل وجع قلبي وأنا عارفة إنه مع حد غيري، أنا تعبانة أوي.. يارب، ريحني".

ثم تذكرت يوم زواجي، من أحلي ذكريات حياتي.. تذكرت فرحتي وفرحته، ضحكتنا من قلبنا، سعادة كل من حولي لسعادتي التي لم توصف.. ضحكتُ وسط دموعي وشعرت فجأةً بقبضة صدري؛ فنظرت إلىٰ السماء وعلمت أن الله استجاب لدعائي، شعرت بالراحة.. الراحة الأبدية، ثم سقطت أرضًا.. سقطة أخيرة لأرتاح وأريح كل من حولي، للأبد.

****



(٤)

أزمة ثقة

أجلس في النادي أمام ملعب التنس مباشرةً، أشير إلىٰ بناتي من وقت لآخر حتىٰ يطمئنوا لمتابعتي لهم أثناء التمرين. ابنتي الصغيرة تستمد من وجودي الأمان لتكمل تمرينها بثقة وحماس، وفخر بأنني أشاهدها وأستمتع بلعبها، وكأنها أهم بطلة. أنظر إلىٰ بناتي وأشعر بالخوف عليهن من المستقبل، تلح عليَّ كلمات لميس –صديقتي منذ الطفولة- عندما اتصلت بي منذ ساعةٍ باكية بحرقة وتريد مقابلتي للضرورة، لا أشعر سوىٰ بالقلق الشديد منذ أن قرَّرَت أن الأمر لا يتحمل انتظارها لانتهاء تمرين البنات؛ فقرَّرَت أن تلحق بي في النادي.

ها هي (لميس) قد وصلت أخيرًا بعد أن نهش القلق قلبي، وأوجعني صوت بكائها. قمت لاستقبالها وفهمتُ أنها كانت ترتدي نظارةً شمسيةً كبيرة الحجم بصورةٍ مبالغٍ فيها لأنها تريد أن تخفي آثار بكائها.

- أهلًا (لميس). مالك حبيبتي! في إيه؟ طمنيني!
- إزيك يا رنا. اصبري بس.. أهدا شوية وأحكيلك.



كافيتيريا النادي طالما ما تسلي الأعضاء بأغانٍ، ولكنني لا أعلم لماذا كانت أغاني اليوم كلها حزينة، وكأنهم يعلمون ما نمر به من أحداث حزينةٍ فقرروا أن يشاركونا الأحزان. بدأت أغنية (أكتبلك تعهد) لأنغام تتردد:

ممكن تسيبني أشتري عمري اللي باقي قول بكام

مش عايزة أعيشه معاك عشان لو عشته كله جراح حرام

ولو انت خايف لما تسيبني هقابل بعدك حد يصونِّي

وانت لو مابقيتش بتصدق كلامي

أنا ممكن أكتبلك تعهد مني إني هعيش لوحدي

باقي عمري بس أعيشه باحترام

طلبت من النادل إحضار كوبين من العصير، حتى تهدأ أعصابنا، ونخفف حدة الحر الشديد والرطوبة العالية لشهر أغسطس، اللتان أشعرتانا بالاختناق، ثم طلبت منه تغيير الأغنية إن أمكن بعد أن شعرت أن لميس تأثرت كثيرًا بها، ولكن لميس استوقفته قائلةً:

- لا سيبها، حلوة.

ثم قالت لي بعد أن ذهب:

- الأغنية دي كأنها علامة من ربنا.



استمَعت إلىٰ باقي الأغنية صامتةً وكأنها تستمد منها القوة لتحكي لي.

أنا عايزة نفسي حتىٰ لو كل اللي باقي منها صوت

مانا لو هكمل حياتي بيك من غير ما يجي الموت هموت

مابقاش في قلبي مكان لا ليك ولا حد تاني خلاص مفيش

مابقيتش عايزة حاجات كتير كل اللي أنا عايزاه أعيش

ولو انت خايف لما تسيبني هقابل بعدك حد يصونِّي

وانت لو مابقيتش بتصدق كلامي

أنا ممكن أكتبلك تعهد مني إني هعيش لوحدي

باقي عمري بس أعيشه باحترام

هدأت لميس قليلًا إلىٰ أن وصل العصير وبدأت تحكي لي كل شيء:

- أنا هاتطلق يا رنا.

رددت بصدمة:

- إيه؟ ليه؟

أجابت باستنكار:

- ليه؟ ما انتي عارفة كل حاجة، خلاص مابقيتش قادرة. كفاية إهدار لكرامتي بقىٰ.
- كرامة إيه؟ طيب إيه الجديد اللي حصل؟



- جديـد؟ هـو لازم يكـون في جديـد؟ هـو القـديم مـش كفايـة؟ واوعي تقوليلي مفيش كرامة بين راجل ومراته! لا فيه طبعًا.
- ما أقصدش، بس أنا قصدي إن خيانته ليكي انتي عارفاها من زمان ومستحملة وعايشة علشان اعتبارات كتير، إيه الجديد بقىٰ اللي يخليكي فجأة تطلبي الطلاق؟ إيه اللي سخنك فجأة كده؟
- عايزة تعرفي أيامي كانت بتعدي إزاي؟
- أنـا كنـت عايشـة في نـار ماحـدش حاسـس بيـا غيـر ربنـا، بقـىٰ عنـدي أزمـة ثقـة رهيبـة. أزمـة ثقـة فيـه وفي نفسـي وفي اللـي حواليـا.. أنـا وصـلت لإني مـش قـادرة أعـرف الصـدق مـن الكذب، مش عارفة أتعامل إني مصدقاه. كل كلمـة حاسـة إنـه بيكدب فيها. لما يقولّي أنا رايح الشغل مش بصدقه، أفضـل قاعدة أفكر يا ترىٰ رايح الشغل فعلًا ولا رايح يقابـل واحـدة؟ طيـب لـو هيقابـل واحـدة هيروحـوا فـين؟ هيعملـوا إيـه؟ هيتبسطوا؟ يا تـري بيحبهـا ولا نـزوة؟ هيرجعلـي ولا هيكمـل معاها؟
- لو اتكلم في التليفون أفضل أفكـر يـا تـرىٰ فعـلًا مكالمـة شـغل ولا بيكلم واحدة؟ طيب بيقولها إيه؟ بيتفقوا علىٰ إيه؟ بيشـتم



فيا ولا مش بيجيب سيرتي أصلًا؟ بيقولها إنه بيحبها؟ طيب مش بيكون حاسس بالذنب؟ مش باجي علىٰ باله وأصعب عليه وأنا مغفلة كده؟

- لو قاللي إنه مسافر شغل أفضل أفكر.. يا ترىٰ شغل بجد ولا سفرية كده وكده؟ هيتفسحوا؟ هيخرجوا؟ هيتبسطوا وأنا هنا بتحرق بأفكاري؟
- لو راجع متأخر بالليل يا ترىٰ فعلًا كان مع أصحابه ولا مع واحدة تانية.
- مخي مش بيوقف تفكير، مش عارفة أفكني منه، مش عارفة أشيله من دماغي، مش عارفة أخرجه من حساباتي.. قلبي بيوجعني بجد، بموت بالبطيء.
- حتىٰ ثقتي في نفسي دمرها، يا ترىٰ هو بيعمل فيا كده ليه؟ هل أنا وحشة؟ هل أنا ماستحقش أتحب؟ هل أنا قليلة؟
- طيب يا ترىٰ حبني في يوم؟ طيب لو ماحبنيش اتجوزني ليه؟ علشان يعذبني؟ طيب لو حبني.. إزاي قدر يعمل فيا كده؟

استمعت لمعاناة لميس بصدمةٍ وفمي مفتوح، وأضع يدي علىٰ قلبي الموجوع لألم شكواها. ما كل هذا؟ لم أكن أتصور أن كل هذا



بداخلها، ما تعانيه فوق احتمال البشر، تحملت وأخفت وجعها لسنين دون أن تبوح بما في عقلها وقلبها حتىٰ لي أنا أقرب صديقاتها. أفقت من شرودي عندما أكملت:

- كل ده وأنا مش عايزة أشغل حد بمشاكلي وساكتة وعايشة، لكن للأسف لقيته بيتمادىٰ وبيزيد والوضع بقىٰ من سيئ لأسوأ. بعد ما كان بيعرف واحدة بقوا اتنين وتلاتة، بدل ما كان الموضوع في الخفاء بقىٰ قدامي وبجاحة، بعد ما كان بيحس بذنب شوية من ناحيتي يخليه يتعامل معايا بأدب، بقىٰ بيعاملني وحش. قوليلي بقىٰ سبب أكمل علشانه، هو أنا ماستحقش أكون سعيدة أو أتحب؟
- اوعي تقولي كده... انتي تستاهلي أحسن حاجة في الدنيا لأنك فيكي كل حاجة حلوة، انتي تستاهلي تكوني مبسوطة ومتطمنة، تستاهلي تلاقي السند والأمان والحنية والتقدير. دي علاقة سامة يا لميس، الراجل ده سمم حياتك.. ابعدي.. اجري...أنقذي نفسك، أنا معاكي.. مش هسيبك.
- قومي دلوقتي اتصلي بيه وقوليله إنك عايزة تتكلمي معاه، ولما تشوفيه اطلبي الطلاق وشوفي هيقولك إيه.



هنا ولأول مرة منذ أن جلست معي خلعت نظارتها الشمسية كبيرة الحجم لأفاجأ بكدمات خطيرة بجانب عينيها اليمنىٰ والتي تسببت في إغلاق عينها اليمنىٰ بالكامل، بينما ظهرت بقعةٌ دمويةٌ حمراء بداخل العين الأخرىٰ.

- أوه! إيه ده؟
- ده رده عليا لما طلبت الطلاق، علشان قولتله إنه بيخونني.

اغرورقت عيناي بالدموع، نظرت إلىٰ بناتي بشفقةٍ متخيلة أن أجد إحداهما يومًا ما تعاني مثل لميس من زوجٍ لا يراعي الله في زوجته. نظرتُ إلىٰ لميس مرة أخرىٰ وهي تضع نظارتها لتخفي آثار جريمة زوجها الشنعاء، لأجد نفسي أهب واقفةً أجمع حاجياتي وحاجيات بناتي اللائي أنهين تمرينهن وأقول للميس:

- هيا.. هيا بنا حالًا.
- علىٰ فين؟
- علىٰ المحامي طبعًا. لا، علىٰ الدكتور الأول وبعدين علىٰ المحامي.

****



(٥)

الحب الأول

اليوم هو الثاني والعشرون من شهر يوليو، من المفترض أن يكون أسعد أيام حياتي؛ فأنا عريس.. كان زفافي أمس علىٰ ابنة خالتي. فتاة جميلة، رقيقة، ذكية، مثقفة، هادئة، باختصار هي حلم كل شباب العائلة وغيرهم من أبناء بلدتنا الصغيرة، والذين يعتبرونني محظوظًا للفوز بها بعد أن وافقت علىٰ الزواج مني.

حجز لنا والدي إجازة في شرم الشيخ كهدية زواجنا الذي رقص له قلبه سعادة؛ فلطالما تمنىٰ والداي إتمام هذه الزيجة. أعلم أنني أتعستهم عندما رفضت اقتراحهم زواجي من (هنا) منذ عام، مصارحًا إياهم بحبي لزميلتي بالجامعة في القاهرة، وأكدت لهم أن (رقية) زميلتي هي حب حياتي ولن أتنازل عن الزواج بها، قائلًا بإصرار:

- أنا قررت أتجوز رقية بعد ما أتخرج إن شاء الله، وانتوا لازم توافقوا. ده قراري ودي حياتي.
- يعني إيه يا ولد لازم دي؟ يعني لو قلنالك لأ هتعصانا؟
- أنا أخدت قراري خلاص يا أبويا ومش هأقدر أغير كلمتي مع رقية، ولا أقدر أعيش من غيرها.



أمي، أبي، اسمعوني.. أنا فعلًا بحبها، أعيش علىٰ حلم زواجي منها.. من سنة وأنا وهي عايشين الحلم ده، حلم إن يجمعنا بيت وإننا نكمل حياتنا مع بعض. إزاي بس أسيبها لأنكم قررتم كده؟ دي حياتي ومن حقي إني أقرر إيه الأنسب ليا علشان أكون سعيد.

ثار أبي.. انهارت أمي.

- مين رقية دي؟ انت عايز تجيبلنا بنت لا نعرفها ولا نعرف أصلها من فصلها وتقول دي هتبقىٰ مراتي؟ طيب و(هنا)؟ ده إحنا عايشين علىٰ حلم جوازك منها من وانتوا أطفال مش من سنة!
- وانت خلاص كبرت وبقيت تتكلم عن الحب؟ انت شايف إنك كبرت علىٰ طاعة والديك وخلاص قادر تعصانا؟ انت لسة شاب أرعن مش عارف مصلحتك، البنت دي مش بتحبك؛ دي طمعانة في اللي تملكه.
- أبدًا يا أبويا، رقية فتاة قنوعة.. بتقدرني وبتحبني، أنا متأكد من كده. خلاصة القول دلوقتي إني مش هتجوز غير رقية يا إما مش هتجوز أبدًا.



فجأة سقطت أمي مغشيٌّ عليها، وما كان من أبي سوىٰ أن أمسك بتلابيب جلبابي واتهمني بأنني لن أرتاح حتىٰ أقتلهما بعنادي الذي ليس له أي أساس.

كل هذه الذكريات مرت بمخيلتي وأنا أسوق سيارتي إلىٰ مدينة شرم الشيخ وبجواري (هنا) زوجتي. أدارت هنا الراديو علىٰ قناة الأغاني لنستمع إلىٰ فقرة (أجمل أغاني التسعينات).

وبدأ صوت (راغب علامة) يتردد في السيارة:

قلبي عشقها والعيون

هويتها وأهلي ما يرضون

يااااه، مست قلبي كلمات الأغنية، شعرت بكهرباء تنتشر في أنحاء جسدي.. ارتعشت يدي علىٰ مقود السيارة؛ فهذه هي أغنيتنا المفضلة، أغنيتي أنا ورقية. كنت أغنيها لها وأرسلها كإهداء في برامج الراديو، رقية.. حبي الوحيد.

كلمتي هذه جعلتني أشعر بالذنب تجاه هنا، هل من العدل أن أفكر في غيرها وهي بجواري؟ نظرت إليها لأجدها تحتضن ملامحي بنظراتها الملائكية وابتسامتها الطفولية والتي تجعلها تحمل من البراءة ما لا يقارن بأحد.. ولكن، القلب له أحكام. فأنا لا أملك مفاتيح قلبي بعد أن أهديته لرقية منذ عامين.



بعد أغنية راغب علامة ترددت أغنية (محمد فؤاد):

أنا لو حبيبك،

ماكنتش يوم تسيبني،

إزاي تقول نصيبك،

وهان عليك تبيعني.

لم أتمالك نفسي في هذه اللحظة لأجد دموعًا دافئةً تنزل من عيني، مسحتها بسرعةٍ قبل أن تلاحظها هنا، شعرت أن رقية هي من ترسل لي هذه الأغاني، لتعاتبني علىٰ تركي إياها وحيدةً بعد أن ملكت حياتها وقلبها. لم أسبب لها سوىٰ التعاسة، لا بد أنها تتمزق الآن. كيف استطعت أن أتخلىٰ عنها وأرضخ لضغوط والديَّ؟

لماذا؟ لماذا ظلمت هنا معي؟ هي أيضًا لا تستحق نصف زوج.. جسد بلا قلب،

هل سأستطيع أن أجعل هنا سعيدة وأنا أشعر بالتعاسة والندم؟ هل سأقدر علىٰ التعايش مع هنا وأنا أشعر باللوم وتأنيب الضمير؟

ماذا عن رقية الآن؟ كيف تشعر؟ هل علمت بزواجي بعد أن ابتعدت عنها وتوقفت عن الرد علىٰ مكالماتها التليفونية أو الذهاب للجامعة بدون أن أكلف نفسي عناء التبرير أو المواجهة؟ لا بد أن تكون قد



علمت بزواجي من (شادي) صديقي وزميلنا بالجامعة، أنا متأكد من أنه تعمد أن يخبرها لأنه لم يحبها، وكان مصرًّا علىٰ أنها لا تناسبني. كان مؤيدًا لرأي والديَّ بأنني يجب أن أبتعد عن رقية، أنا جبان حقًّا لأنني قررت الهرب فجأة دون مقدمات، أنا جبان حقًّا لأنني لم أستطع التمسك بحبي. والآن يجب أن أعاني عقابًا لي علىٰ جبني، ولكن ماذا عن رقية؟ لم عليها أن تعاقب؟ وماذا عن هنا أيضًا، لم عليها أن تعاقب؟

كل شيء في فترة إجازة شهر العسل بشرم الشيخ كان يذكرني برقية، الرحلة البحرية مع هنا ذكرتني برحلاتي النيلية مع رقية، السفاري تذكرني برحلات الجامعة إلىٰ (باجوش)، سهراتنا في الكافيهات تعيد لي ذكريات خروجاتي مع رقية بعد مواعيد الجامعة بحجة المذاكرة.

أراها في كل مكان، آسف يا رقية.. ليس بيدي.

مرت الإجازة ولم أشعر بهنا.. لم ترِد هنا أن تشعرني بتعاستها الواضحة فكانت تدَّعي السعادة، كنت حزينًا من أجلها ولكن مرة أخرىٰ.. ليس بيدي.

عند عودتنا إلىٰ البلدة بعد إجازة شهر العسل فاجأتني والدتي بخبر خطوبة صديقي شادي. اتصلت لأهنئه ولكنني لم أجد سوىٰ والدته



التي أخبرتني أنه قد أتمَّ خِطبته إلىٰ صديقةٍ لنا من الجامعة اسمها (رقية).

ضحكت ضحكةً بلهاء تختلط ببكاء الحزن مع الصدمة..

أنهيت المكالمة ولا تتردد في عقلي سوىٰ كلمات أغنية (إيهاب توفيق):

مالهومش في الطيب..

يا قلبي يا طيب..

يا اللي ما شافوا منك..

غير كل شيء طيب..

أغلقت سماعة الهاتف وأغلقت أذنيَّ بيديَّ حتىٰ أوقف صوت كلمات الأغنية التي أصبحت تتردد بصوت يعلو حتي أصبح كالصراخ.. ثم... صمت، صمت مطبق وظلام غلفني.

حاولت أن أفتح عينيَّ بعدها بصعوبة لأجدني مستلقيًا علىٰ سريري وحولي أمي، وأبي.. وهنا.

نظرت إليهم متسائلًا؛ فأجابتني هنا ببراءة الأطفال وسط دموعها التي أغرقت صدر جلبابها:

- انت كويس؟ فجأة وقعت وماحطتش منطق، إيه اللي حصل؟



نظر أبي وأمي إليَّ نظرةً ذات معنىٰ، من الواضح أنهما قد علما بالخبر من والدة صديقي شادي، ثم قال أبي:

- حمد الله علىٰ السلامة، الحمد لله إن اتطمنَّا عليك، خلِّي بالك من نفسك بقىٰ وانتبه لحياتك ومراتك وبيتك.. خلاص انت هتبقىٰ أب.

فتحت فمي من الصدمة لأنظر إلىٰ أمي وهنا فتنظر هنا أرضًا بخجلٍ بعد أن احمر خداها، ثم تنظر إليَّ أمي نظرةً يملؤها الحنو، وكأنها تحتضنني مباركة علىٰ الخبر السعيد، ومتوسلة أن أنسىٰ ما مضىٰ لأعيش حياتي الحالية بسعادة.

خرج الجميع من الحجرة، تركوني لأفكاري حتىٰ أتخذ قراري بهدوء، وحتىٰ لا تشعر هنا بشيء طلبت أمي منها أن تساعدها في المطبخ.

ولكن لم يكن هناك قرار لأتخذه؛ فأنا بالفعل زوج وفي طريقي لأن أكون أبًا، ليس أمامي سوىٰ أن أعيش حياتي التي رسمها القدر، ومن الآن همي الوحيد سيكون إسعاد من حولي..

أمي وأبي وهنا، وابني إن شاء الله.

قدرني يا الله.

****



(٦)

أنوثتي نقمة

(١)

في صباح يوم الثلاثاء ٣ أغسطس من عام ٢٠٠٦ استيقظنا جميعًا علىٰ مكالمةٍ تليفونية من عمتي تنقل إلينا خبر وفاة الشيخ (علي)، شيخ بلدتنا الصغيرة بالأرياف. لن أستطيع نسيان ذلك اليوم ونحن نقف بجوار المقابر.

الجو حار كالنار، وسط صريخ وعويل عدد من النساء -كعادة الفلاحين- ووسط نواح عمتي وبكاء أبي ونهنهة عمي المسموعة من داخل المقابر.. الجميع يبكي وفاة الشيخ علي، إمام مسجد القرية وحبيب جميع سكانها، الجميع يبكون فراق أطهر الرجال وأكثرهم طيبةً وخلقًا -كما يظنون- إلا أنا.

كنت أقف بالخارج عند الباب في صمتٍ مهيبٍ يليق باللحظة، ولكن دون مشاعر. أنظر إلىٰ الجميع بعيونٍ خاوية، لا تتحرك شفتاي بالدعاء كما يفعل الجميع، وكأن الأمر لا يعنيني في شيء، وكأنني لا أقربه ولا أنتمي إلىٰ القرية التي لا أستثني من أهلها أحدًا لم يكن يحب الشيخ علي.



نظرت إليَّ أمي من داخل المقابر بعيون تمتلئ بالعتاب واللوم، وكأنها تخاف من أن يلاحظ أحد عدم اكتراثي لهذا الحدث الجلل من وجهة نظر أهل القرية، فقد أرسلت أمي لتأتي بي من الإسكندرية حيث أقيم مع جدتي منذ عشر سنوات، عندما علمت بأن المرض اشتد علىٰ الشيخ علي، والذي يعد أهم شخصية في البلدة، بل قد يكون أهم من العمدة ذاته؛ فهو بمثابة الأب الروحي لكل أبناء القرية، أرسلت إليَّ خوفا من أن يحدث له شيء وأنا بعيدة فـ(يأكل الناس وشها)، ولكنها متأكدة أنني لست فقط لا أهتم بما يحدث لجدي، بل وربما أكون سعيدة بموته.

***

(٢)

خرج الجميع من المقابر متجهين إلىٰ منزل الشيخ علي، الذي يعيش وحيدًا لأنه لم يتزوج ولم يكن له أقارب معروفين. يسكن الشيخ علي منزلًا يتكون من طابق واحد، له حَوْشٌ واسعٌ مطليٌّ باللون الأبيض من الخارج، بينما يغطي جميع حوائطه اللون الرصاصي. فتح أهل القرية أبواب المنزل لاستقبال المعزين. في الطريق أخذت أنظر إلىٰ الحقول من حولي، زروعٌ خضراء ونخلٌ عالٍ، حيواناتٌ تحرث الأرض



وأخرىٰ هائمةٌ علىٰ وجوهها في الطريق. لقد افتقدت بلدتنا كثيرًا؛ فها هي عشر سنوات تمر دون أية زيارة مني.

استمتعت بالمناظر من حولي وبشعور الاطمئنان الذي افتقدته منذ زمن بعيد، كنت أفيق من شرودي علىٰ ابتسامات لذكريات بعيدة مضت مع أطفال القرية في مكان كنا نلعب فيه، أو لوقت ممتع قضيناه.

وصلنا إلىٰ المنزل ولكنني لم أجد الشجاعة للدخول، انتابتني رهبةٌ وشعرت ببرودةٍ في أطرافي. وقفت أتأمل المنزل من الخارج واضعةً يدي ببطء علىٰ جرح جبيني القديم الذي أتعمد إخفاءه تحت شعري الذي تركته طويلًا من جهةٍ وقصيرًا من الأخرىٰ، متعمدةً ذلك ومتحججةً بأنها (موضة). نزلت أمي من السيارة لتدفعني من الخلف مشجعة إياي علىٰ الدخول.

رن هاتفي المحمول بأغنية:

موجوع قلبي، والتعب بيه

من أباوع علىٰ روحي، ينكسر قلبي عليه

موجوع قلبي، والتعب بيه

من أباوع علىٰ روحي، ينكسر قلبي عليه

تعبان وجهي، وعيوني قهرتني

دنيا شلت حال حالي، وبحياتي كرهتني



نظرت إليَّ أمي بلومٍ لأنني لم أضع الهاتف علىٰ الوضع الصامت في مثل هذه الظروف، ولكنني تجاهلت نظراتها ولم أرد علىٰ الهاتف أيضًا، بل هرولت مسرعةً ولكنني لم أدخل منزل الشيخ، بل دخلت للاختباء في حجرتي في منزل عائلتي المواجه لمنزل الشيخ. لم تعد كما هي، بل لم تعد غرفتي من الأساس.. الآن هي غرفة أخواتي (هند) و(هبة) و(هالة). دخلت هند خلفي إلىٰ الحجرة متهكمة وقالت:

- ما بالك يا (هنادي) هانم؟ أيعقل أن تكوني قد افتقدتِ حجرتنا الصغيرة الضيقة؟ طبعًا لن تعجبك بعد أن جربتِ عيشة الإسكندرية وأصبحت لديك حجرةٌ خاصة.

شعرت بالحقد المدفون والذي كان يتساقط من كلمات هند مع ضغطها علىٰ حروف كلماتها، لم تكن هند تعي ما السبب وراء تركي للمنزل منذ ١٠ سنوات مضت، لم تشعر بمرارة الابتعاد عن العائلة مجبرة، لم تعرف معنىٰ الاضطرار إلىٰ العيش وحيدة وكأنها يتيمة. نعم كانت جدتي ترعاني في الإسكندرية، ولكنها سيدة عجوز تحتاج إلىٰ من يعينها ويرعاها؛ فكنت فعليًّا أنا من يعتني بها وليس العكس. فقلت في نفسي:

- يااااه يا هند، ليتك تعلمين كم أشتاق إلىٰ حضنك وإلىٰ بيتي وغرفتي الصغيرة الضيقة، كم أشتاق إلىٰ



الضوضاء والصراخ واللعب مع الأطفال، كم أشتاق إلىٰ البيت والدفء والعائلة.

خرجت من حجرتي –أقصد حجرة أخواتي البنات– لأجد المعزين قد توافدوا إلىٰ المنزل؛ فتم تخصيص شقة الشيخ لاستقبال النساء ولم يكن هناك ما يكفي من المال لعمل صوان للعزاء، بينما تجمع الرجال بحوش المنزل المتواضع. جلست صامتةً أتصنع الحزن فسمعت همساتٍ من حولي من نساء القرية اللاتي بدأن في التعليق علىٰ مظهري الذي أصبح غريبًا كثيرًا عنهن، وكأنني أجنبية أجلس وسطهن، فمنهن من علقت علىٰ ملابسي –البنطلون الجينز والتوب– التي تشبه ملابس الرجال، خاصةً الحذاء (السيفتي)، وشعري القصير ذا القصة الغريبة.

ورغم نظراتهن المشمئزة مني ومصمصة شفاههن إشفاقًا منهن علىٰ ما آلت إليه حالتي؛ حيث خيبت أمل عائلتي وأعيش عيشة البندر، لأنني أكمل دراستي بالجامعة ولم أتزوج حتىٰ الآن. فتقول إحدىٰ الجارات لأمي هامسةً:

- كيف تتركينها حتىٰ الآن بدون زواج؟ لقد وصلت ابنتك للثانية والعشرين من العمر ولم تخطب بعد! من في مثل سنها معهن من الأطفال اثنين وثلاثة و(بقوا طولهم).

تركت هذا التجمع المقيت لأنفرد بنفسي وذكرياتي التي افتقدتها.



- ياه يا حاج علي! ١٠ سنين! منك لله. لست أسامحك.

***

(٣)

بعد انصراف نساء القرية دخلت أمي إلىٰ الحجرة لتسألني عن حالتي. ضحكت بسخريةٍ قائلةً:

- أتسألين عني الآن؟ أخيرًا تذكرتِ أن لك ابنة؟ علىٰ أية حال أنا سأعود غدًا للإسكندرية؛ فها قد أديت واجبي ولا أعتقد أنك تريدين مني شيئًا آخر بعد أن أسكتِّ كلام الناس بحضوري لعزائه.
- وما الحاجة إلىٰ العودة؟ ألم يحن الوقت لنجتمع مرة أخرىٰ؟

- ولماذا تريديننا أن نجتمع؟ ألم يكن الابتعاد هو قرارك بعد أن فشلتِ أنتِ وأبي في حمايتي؟ ضعفكم وفشلكم في مواجهة جدي وأخذ حقي حتىٰ كرهتكم وكرهت نفسي هو سبب ابتعادي.

أتكلم ولكنني أشعر بضوضاء نغمة موبايلي تتردد في صالة المنزل بالخارج وكأنها تشاركني مشاعري:

كرهت الحب، ماريده دمرني

طيب أني وأدري طيبي، لهالحال وصلني



موجوع قلبي، والتعب بيه

من أباوع علىٰ روحي، ينكسر قلبي عليه

كل يوم صدمة أقوىٰ من اللي قبلها

أني واصل بالشدايد شدة محد واصل إلها

كل يوم صدمة أقوىٰ من اللي قبلها

أني واصل بالشدايد شدة محد واصل إلها

محد وقفلي من كنت محتاج وقفة

الصلابة بهالناس، مدري هاي الدنيا صلبة

دخيل الله، من الدنيا من العالم

ربي خلي هذا همي، نهاية كل ظالم

أكملت:

- هل تعرفين ماذا يحدث عندما تفتقد البنت الأمان والسند والحماية والدعم؟

هل تعرفين أنني أذهب إلىٰ طبيب نفسي لأتعالج من آثار الحادثة والكوابيس التي ما زالت تلازمني عند نومي.

- انسي يا هنادي.. كانت غلطة ولحظة ضعف من الشيخ ونحمد الله أنه سترها معنا ولم يحدث شيء.



قلت بصراخ بعد أن فقدت أعصابي:

- غلطة ولحظة ضعف؟ لم يحدث شيء؟ أتسمين اعتداء رجلٍ عجوزٍ علىٰ طفلةٍ في سن حفيدته غلطة؟ أتسمين هجومه علىٰ طفلة وملامسة جسدها لحظة ضعف؟ وماذا عن جرح جبيني وقبلها نفسيتي؟ لقد تشوهت من الخارج والداخل.. تشوهت بجرح لن ينسيني هذا الحدث طوال حياتي مهما حاولت إخفاءه.

هجمت عليَّ أمي تكتم فمي لتسكتني خوفًا من أن يسمعنا أحد، فأبعدتها بيدي.

- أما زلت خائفة؟ ما زلت ضعيفةً وعاجزةً عن حماية ابنتك خوفًا من كلام الناس.
- لقد تشوهت شخصيتي، فلم أصبح تلك الفتاة الجميلة، بل أتعمد إخفاء جمالي بالتشبه بالرجال خوفًا من أن يطمع فيَّ أحدهم، قصصت شعري ولبست البنطلون والحذاء الرجالي.. أصبحت أمشي كالرجال لأخفي ملامحي الأنثوية التي أصبحت أعتبرها عارًا بفضلكم، انقلبت نعمة كوني فتاة إلىٰ نقمة.

لم تفعل أمي شيئًا سوىٰ البكاء والنحيب.



حاولت استعادة قوتي قائلةً:

- أنا ذاهبة غدًا إلىٰ الإسكندرية؛ فعندي موعد مع طبيبي النفسي.. وبعد أن رأيت ضعفك مرة أخرىٰ اليوم أمام نساء القرية عندما تكلموا في حقي، فإنني أصر علىٰ الرحيل لأعتبر نفسي من اليوم يتيمة رسميًا.

لا سامحك الله يا شيخ علي.

لا سامحك الله يا أبي.

لا سامحك الله يا أمي.

****



(٧)

رغم العيش تحت سقف واحد

جلس المأذون علىٰ مكتبه بعد أن تركهما بعض الوقت ليتحدثا علىٰ انفراد، لربما قد يصلان إلىٰ اتفاق.

- ها يا جماعة! وصلتوا لحل؟ إن أبغض الحلال عند الله الطلاق.

قال (أيمن):

- خلاص يا سيدنا الشيخ، إحنا متفقين علىٰ كل حاجة.

وأكملت (يسرا):

- تمام يا حضرة الشيخ، إحنا ناس متحضرين والموضوع هيخلص بشياكة.

يسرا وأيمن زوجان يعيشان تحت سقف واحد، يسرا وأيمن عكس بعضهما في كل شيء. جاء زواجهما نتاج بعض المقابلات الرسمية ثم قبول فإعجاب متبادل، ولكنه لم يصل إلىٰ حد قصص الحب الأسطورية، كان زواجهما عقلانيًا وليس زواج قلوب.

أيمن إنسان عمليٌّ جدًّا لا يؤمن بالحب والرومانسية، لا يستطيع إضفاء الطابع الحالم علىٰ كلماته أو تصرفاته، بينما يسرا ذات شخصية رومانسية حالمة.. لطالما تمنت يسرا أن تقابل فتي أحلامها الذي يشبه



أبطال الروايات التي تقرأها، ليأتي ويختطفها علىٰ فرسه الأبيض.

هواية يسرا المفضلة هي قراءة الروايات الرومانسية؛ لتعيش أحداثها بكل مشاعرها وحواسها، بينما يراها أيمن تافهة ورومانسية وغير واقعية (وكأن تلك الصفات هي وصمة عار).

رغم اختلاف شخصياتهما إلا أنهما لم يجدا ذلك عائقًا في علاقتهما. علىٰ العكس، فكان أيمن يؤمن بأن عالم يسرا الخيالي قد يكون نقطةً في صالحه؛ لأنه يجعلها منشغلةً عنه فلا ترهقه بطلباتها ولا بفراغها الذي تعانيه، لأنها تستطيع دائما ملء أوقات فراغها بالقراءة ومشاهدة المسلسلات التركية.. بينما تؤمن يسرا بأن عالم الخيال الذي تعيشه وإحساسها المرهف لا يتناسبان مع صعوبة الحياة الواقعية التي طالما هربت منها إلىٰ قوقعتها وحياتها داخل دائرةٍ مغلقة خوفًا من مواجهة أي شيء يقلقها، لذلك فإن شخصية أيمن العملية تحقق لها المعادلة الصعبة حتىٰ يوازن أيمن بين خيالها الجامح والواقع الغير محتمل الذي نعيش فيه.

في بداية حياتهما الزوجية كان اختلافهما ميزةً حيث بدأ كل منهما بالتقرب إلىٰ الآخر ليجدا السعادة في معرفة نقاط الاختلاف بينهما.. فالسمات الشخصية لكلٍ منهما جديدة ومختلفة بالنسبة للآخر. كانت



يسرا تجد في أيمن الجرأة والشجاعة في التعامل مع المجتمع، بينما كانت هي دائمًا خجولةً منطوية.

وجدت يسرا أيضًا أن أيمن هو شخص اجتماعي، يستطيع التعامل مع أي شخص حتىٰ وإن كان يقابله للمرة الأولىٰ، لأنها كانت تكره خوفها من الاختلاط وعدم قدرتها علىٰ التعامل سوىٰ مع الأشخاص المقربين فقط، وجدت فيه الانطلاق وحب المغامرة في تجربة أشياء جديدة ومواقف خطيرة وتجارب استثنائية، بينما عاشت هي حياةً روتينيةً تهاب أي موقف غير اعتيادي.

أيمن أيضًا أحب فيها الخجل والبراءة، وجدها فتاة (بيتوتية) فآمن بأنها من ستجعله يحب المكوث بالمنزل بدلًا من قضاء معظم وقته علىٰ المقهىٰ أو خارج المنزل في العموم. شعر أنها بهدوئها ورومانسيتها ستجعل من حياته جنةً يهرع إليها بعد يوم عملٍ شاقٍ ومرهق وطويل، ليرتاح بجوارها في غرفة المعيشة علىٰ أريكةٍ مريحةٍ في ضوءٍ خافت علىٰ ضوء الشموع وموسيقىٰ كلاسيكية. أحب أن يكون الشخص الأول في حياتها؛ فكل تجربة لها معه ستكون المرة الأولىٰ والتي تحفر ذكرياتٍ بداخلها، مما يجعله قادرًا علىٰ تشكيل حياتها وتغييرها حسب أهوائه.



بدأ الزوجان حياةً زوجيةً مثيرةً وممتعة، يتعرف كل منهما علىٰ الآخر ويحاول الغوص في شخصيته، ترفرف السعادة عليهما حتىٰ أصبحا مثالًا يحتذىٰ به في الزواج لكل من عرفهما. أصبح اختلافهما سبب تقاربهما واجتماعهما، بل واستمتاعهما بأوقاتهما معًا، مما جعل كل من عرفهما يصدق أن الاختلاف ليس عيبًا جوهريًا بل ربما هو ميزةٌ يجب الافتخار بها.

بعد مرور عام، أصبحت نفس الصفات التي اندهش بها كل منهما في الآخر هي نفسها الصفات التي تؤرقهما الآن، أصبحت شخصية أيمن الاجتماعية تحرجها لأنها اكتشفت أن اجتماعيته من وجهة نظرها أحيانًا ما تزيد عن الحد، فيبدأ هو بالمزاح مع أشخاص قد يراهم للمرة الأولىٰ. أصبحت واقعيته تبكيها، بعد أن تسببت في إصابتها بالصدمة من ردود أفعاله في مواقف متكررة تجاه هواياتها ورومانسيتها وخيالها. أصبحت مغامرته تخيفها ولا تستطيع أن تجاريه فيما يفعله.

فبعد أن كان الاختلاف ما جمعهما، أصبح اختلافه يخيفها ويجعلها تتجنبه وتبتعد عنه وتهرب لتعود لقوقعتها (Her comfort zone)، حيث الراحة المنشودة بالنسبة إليها، وإحساسها بالأمان.

اختلاف يسرا عن أيمن أصبح خانقًا له، لم يعد يتحمل ضعفها وبكاءها الدائم، لم يعد يتحمل سذاجتها وعالمها الوهمي البعيد عن



الواقع، لم يعد يتحمل خوفها المستمر من أي تجرِبةٍ جديدة، لم يعد يتحمل اختباءها من الناس وهروبها من أي تجمع لأشخاص لا تعرفهم.

اكتشف كل من أيمن ويسرا أن اختلافهما أصبح سر تعاستهما وبعدهما، أصبحت يسرا تهرب من تعاستها وصدمتها من الواقع الذي أصبحت تخافه أكثر من ذي قبل، فتقضي وقتها بين كتبها ومسلسلاتها.

أصبحت صامتةً طوال الوقت، ترفض خروجها مع أيمن وتتحجج بأي شيء حتىٰ تبقىٰ في المنزل.. بينما شعور أيمن المتواصل بالملل جعله يقضي وقته خارج المنزل؛ فعاد لحياة الصخب والخروج والمغامرات وحده بدون يسرا التي تركها لحياتها ودائرتها المغلقة، فأصبح المنزل لا يمثل له أكثر من فندقٍ مجانيٍّ يأتي إليه فقط ليأكل ثم ينام، لم يعد بينهما أي تواصل أو حديث، لم يعد بينهما ما يجعلهما يكملان معًا أو ما يتحملان من أجله صعوبات الحياة.

ورغم العيش تحت سقفٍ واحدٍ إلا إنه لكلٍ منهما حياة خاصة بعيدة كل البعد عن الطرف الآخر، فأصبح الانفصال هو الحل؛ ليكمل كل منهما حياته وحده علىٰ أنقاض بعض الذكريات السعيدة، والكثير من الإخفاقات والخذلان والذكريات المؤلمة تحت سقف واحد.



يمكن ده مش مكاني!

أو الزمان ده، مش زماني

أو أنا موهوم

يمكن خيالي وداني لدنيا أو العالم تاني

أو أنا مجنون

أنا نجم بس مافيش سماء

عندي جناحات بس مافيش هواء

وبعدين جوه مني صوتين

صوت سابقني، والتاني قديم

صـــوت يـــدل

وصوت يضل.. صوت يحرر

وصوت.. يشل

وبعدين أروح لمين

بحلم ببكرة أنا طول الليل

ييجي النهار والصبح كل اللي حلمته بيتمسح

هواك بحس إنه سابق، انتم عايشن في الماضي

وأنا معه بتخانق مكان أنا شايفه



مش هنا عالمي

أقوىٰ مني ومكملة، أنا نجم بس ما فيش سماء

عندي جناحات بس مافيش هواء

وذات يومٍ وبدون سابق إنذار نطقت يسرا قائلةً:

- طلقني.

****



(٨)

زي أمي

أنا شاب، أبلغ من العمر ٣٣ عامًا، ناجح وأعمل بوظيفةٍ مرموقةٍ في أحد القطاعات الحكومية بالدولة. تربيت في منزلٍ متواضعٍ كأحد أفراد أسرةٍ متوسطةٍ تتكون من الأب والأم وأخ وأختين، شكلي رجولي وسيم؛ فأنا قمحي اللون، جسدي رشيق رياضي، طويل، شعري أسود قصير، ودائمًا ما أهتم بمظهري فأشتري أغلي الملابس والعطور، كما أنني أملك سيارة متوسطة. تزوج أخي وأخواتي البنات في سن أصغر من سني بكثير، ولكنني لم أتزوج حتىٰ الآن.. الأمر الذي أرهق أمي – السيدة البسيطة– كثيرًا في محاولةٍ منها لإقناعي بواحدة من الفتيات الكثيرات التي كانت تجتهد لتريني أيًا منهن كعروس مستقبلية لي، لم تعلم أمي أن المشكلة كانت في المواصفات التي كنت أبحث عنها في زوجتي المستقبلية، أو الفتاة التي أريد أن أكمل معها حياتي. قابلت الكثيرات، الجميلات، الذكيات، المثقفات، العاملات، المستقلات.. وغيرهن ممن كنَّ حلمًا لأي شاب يريد الزواج، ولكن ما كنت أبحث أنا عنه حقا هو فتاة (زي أمي).. سيدة بيت، حنونة، طيبة، (بيتوتية)، أمٌ حتىٰ قبل أن تنجب، تقدس زوجها والحياة الزوجية. لا أريد امرأةً بلا



شخصـية، ولكنني أريـد امـرأةً تعـرف كيـف تـدير شـئون المنـزل دون اللجوء لأيٍ كان، تعرف كيـف تـدبر وتتصرف في المشكلات التـي لا تخلو منها أية حياة زوجية.

وبعد بحثٍ مضنٍ، أخيـرًا وجـدتها.. (أمنيـة) هـو اسـمها، وكانـت هـي أمنيتي فعلًا.. وجدت فيها أمي وأختي وحبيبتي. عندما قابلتهـا للمـرة الأولىٰ انجذبت إليها مرةً بعد أخرىٰ، وزاد إعجابي بصفاتها الشخصية وطريقة تعاملها مع الأمـور الصعبة. عندما صـارحت أمي أنني أريـد الزواج من أمنيـة طـارت فرحًـا وجـاءت معـي لنتقـدم لأهلهـا، تزوجنـا سريعًا وتعاملت معها منذ اليـوم الأول علىٰ أنهـا أمـي أكثـر مـن كونهـا زوجتي، لم أستمع أبدًا عندما كانـت تطلـب منـي أيـة طلبـات للمنـزل؛ لأن أمي كانت تفعل كل هـذا دون أن تشـغل ذهنـي بتلـك الأشـياء، لـم أستمع إليهـا عنـدما تبـدأ في حكايتهـا عـن أيـة تفاهـات حـدثت خـلال اليـوم، ولكنهـا كانـت مـلاذي في الأوقـات الصـعبة.. حضـنها الـدافئ يحتـويني في أو قـات حـزني. تركـت لهـا حريـة التصرف في كـل أمـور المنزل دون أي تدخل مني، فهكذا كانـت تفعـل أمـي. وكانـت حجتـي كالتالي:

- المنزل هـو سـفينتنا، السـفينة اللـي ليهـا ريسـين بتغـرق.. وأنـا سلمتك الدفة، انتي ريس المركب.



ومـع الوقــت شــعرت بالســعادة البالغــة مــن أننــي والحمــد لله أحســنت الاختيــار، ووفقنــي الله للزوجــة الصــالحة؛ فهــي نعــم الزوجـة في إدارة شـئون المنـزل وشـئوني الشخصـية، ممـا جعلنـي لا أحمــل همًــا لشــيء. ممــا جعلنــي أتفــرغ لعملــي وأنجــح بــه وأترقــىٰ لأصــل لمنصــبٍ أعلــىٰ في فــترةٍ قصــيرة، إلــىٰ جانــب إبـداعها ورجاحـة عقلهـا وذكائهـا في حـل أيـة مشـكلة أواجههـا في عملـي، فعنـدما آتي إلـىٰ المنـزل مهمومًـا فتسـألني عمـا بـي وأقـص عليهـا المشـكلة، لا تهـدأ حتـىٰ تخـرج بحـل للمشـكلة خـارج الصندوق، إنها حقا رائعة.

إلا أنني قد لاحظت مؤخرًا انطفاءها وسكوتها الـدائم، أرىٰ حزنًـا غيـر مفهوم في عينيها وكأنها أصبحت آلـةً أو روبـوت، تقـوم بواجباتهـا علـىٰ أكمل وجه ودون تقصير، دون شكوىٰ، دون ملل، ولكـن أيضًـا.. دون حمـاس، دون روح، دون سـعادة. ورغـم ملاحظتـي هـذه إلا أننـي مـرة أخرىٰ لم أكلف نفسـي عنـاء أن أسـألها مـا بهـا أو أحـاول معرفـة سـبب تغيرهـا.. واسـتمرت حياتنـا علىٰ هـذا المنـوال حتـىٰ الأسـبوع الماضـي.

عدت من عملي يوم السبت الماضي في السادسة مساءً كعـادتي لأجـد حماي وحماتي بالمنزل، رحبت بهمـا بحمـاس ولكنني وجـدت جفـاءً من ناحيتهما.



- أهلًا.. أهلًا، أهلًا يا عمي إزاي حضرتك؟ وحضرتك يا طنط؟ شرفتونا.
- أهلا بيك يا (أحمد) يا بني، أنا عايزك في موضوع مهم بعد ما تغير وتتغدىٰ.

تعجبت من كلامه ولكنني نظرت بتساؤل لأمنية، فما وجدت منها إلا أنها أدارت رأسها في الاتجاه الأخر متجنبة النظر في عيني، لم أستطع إخفاء قلقي من هذه الزيارة المفاجئة وهذا الجفاء الذي شعرت به في مقابلة أنسبائي. دخلت إلىٰ حجرتي لأبدل مناسبي فلاحظت أن أمنية اتجهت إلىٰ المطبخ لتجهيز سفرة الغداء كعادتها، تناولنا جميعًا وجبة الغداء في صمت. حاولت أن أكسر التوتر بالمزاح ولكن لم أجد أي تجاوبٍ من أيٍ منهم؛ فقررت العودة للصمت. بعد أن انتهينا، ذهبت أمنية إلىٰ المطبخ وخلفها والدتها، ثم اتجه والدها إلىٰ الصالون قائلًا:

- تعالىٰ ورايا يا أحمد في الصالون علشان نتكلم براحتنا.
- خير يا عمي.
- دلوقتي أنا عايز أعرف وبصراحة.. بنتي عاملة معاك إيه؟
- زي الفل يا عمي، هو في حاجة ولا إيه؟
- يعني هي زعلتك في حاجة؟ قصرت معاك في حاجة؟ بتشتكي منها في أي حاجة؟



- أبدًا أبدًا يا عمي بالعكس، إحنا حياتنا تمام الحمد لله وفي منتهي السعادة.
- أمال في إيه بس؟
- في إيه في إيه بس؟ أنا مش فاهم حاجة.
- أمنية طالبة الطلاق، ومش عايزة تقول أسباب. كل اللي بتقوله إنها مش حاسة إنها مبسوطة، ولا حاسة إنها متجوزة أصلًا. طيب انت ليه مزعلها كده؟
- والله ما عملت حاجة، طلاق؟! أنا مش قادر أصدق.. ليه؟ إحنا حياتنا تمام.

فجأة خرجت أمنية من المطبخ ولأول مرة أجدها تتكلم بهذه الحدة.

- حياتك انت اللي تمام مش حياتي.. حياتك مرتاحة وسهلة وبسيطة لإن أنا اللي شايلة كل المسئولية، أنا المسئولة عن كل حاجة في البيت، أنا اللي باخد كل القرارات، أنا اللي بحل كل المشاكل.. أنا المسئولة عن كل حاجة لحد ما بقيت حاسة إني أنا راجل البيت مش الست. ويا ريت بعد ده كله فيه تقدير ولا كلمة شكر، لا بالعكس، انت كمان سوقت فيها علىٰ الآخر.



تقدر تقولي انت تعرف إيه عني أو عن البيت؟ تعرف إيه عن مشاكل البيت؟ تعرف إزاي المشاكل دي بتتحل؟ عمرك سمعتني بشتكي؟ لا وكمان مطلوب مني أسمع شكاوي شغلك بصدر رحب، وكمان ألاقيلك حلول ليها.

عمرك فكرت فيا أنا كست؟ أنا بحس بإيه؟ عايشة إزاي؟ مشاكلي مين بيسمعني فيها؟ بتكلم مع مين أول ما أحس إني زعلانة؟ لما بتضايق مين بيحتويني ويحسسني إنه سندي وضهري وملجأي اللي أجري عليه وقت ما أحتاج؟

انت أناني.. أنا كنت ليك كل ده لكن انت ماكنتش ليا أي حاجة، انت كنت بتدور علىٰ أم بديلة مش زوجة تكون ليك الأمان وتبقىٰ زوجة أمام الناس.

عمرك فكرت أنا ليه ماعنديش منك أطفال لحد دلوقتي؟ أكيد طبعًا أصلًا مش فارق معاك لإني بالنسبالك أم، حابب يكون كل اهتمامي ليك وحدك علشان ماحدش يشاركك اهتمامي بيك.. لكن بالنسبالي؟ انت كنت بالنسبالي حمل تقييل مش قادرة أزوده بمسئوليات طفل جديد، بس علىٰ فكرة بقىٰ.. أنا مش أمك.

صمتت فجأة لتدور كاميرا وهمية علىٰ وجوه كل من بالغرفة.. أمنية التي تتنفس بصوتٍ عالٍ وصدرها يعلو ويهبط بسرعةٍ نتيجة الانفعال،



وجهها أحمر وعيونها حمراء والدموع تجري على وجنتيها. والد أمنية، والدة أمنية، وأنا.. ثلاثتنا في حالة صدمة، أفواهنا مفتوحة، لا نطق، عيوننا اغرورقت بالدموع، تفكيرنا مشلول، لا نصدق كل ما قيل.. لا نصدق كم المشاعر السلبية بداخل أمنية والتي تعاني منها لسنوات دون مشاركتها، دون شكوى، دون تلميح.

صمتت أمنية وصمت معها كل شيء، توقف الزمن، شعرت كم كنت ظالمًا أنانيًّا كما وصفتني. كيف لم ألحظ أنها كرهت دورها كأمٍ لي وتحملته رغمًا منها لسنوات، ولكنها لم تشكُ يومًا. لم تقل إنها حزينة أو لا تحب ما تفعل، لم تقل إن مشكلات عملي تسبب لها التوتر. لماذا كانت تؤدي دورها ببراعة كل هذا الوقت؟ ولماذا تشكو من الأساس؟ فلقد عاشت أمي عمرها كله تقوم بنفس الأدوار بصدرٍ رحب دون شكوى، أم إنها أيضًا لديها نفس المشاعر السلبية وتبقى صامتة؟ لا أفهم شيئًا.. ولكن الآن حان وقت العصيان، لقد تنحت أمنية عن دورها كأمي.

نطق الآن فقط والد أمنية بصوتٍ صارم:

- طلقها يا أحمد.

أنا آسف يا أمنية.. آسف إني ماحسيتش بعذابك كل الفترة دي.



أجبت أنا موجهًا كلامي لأمنية:

- أمنية.. أنا كمان آسف.. انتي طالق.

وهنا سقطت أمنية مغشيٌّ عليها.

في حاجات تتحس وماتتقالش، وإن جيت أطلبها أنا ماقدرش

ولو انت عملتها بعد ما أنا أطلبها، يبقىٰ ماينفعش

في حاجات تتحس وماتتقالش، توجع في القلب ومابتبانش

وأفضل علىٰ طول تعبانة، ما بين طب أقول لك ولا ما أقولكش

ما قدرش أقول لك غير كل طريقة حبك ليا

أو غير عليا ولا فاجئني في مرة وهات لي هدية

واملا عينيا واعمل حاجة أنا مش عارفاها

واملا عينيا واعمل حاجة أنا مش عارفاها

ماقدرش أقول لك حلي الدنيا في عيني وغير فيا

لو مهما كنت قريب مني وكنت قريب ليا

ماقدرش أقول لك شكل حياتنا اللي أنا عايزاها

اعرف لوحدك شكل حياتنا اللي أنا عايزاها

أوقات ببيان إني سكت وهديت ورضيت واتعودت

مش معني كده إنك علىٰ طول تحسبني إني استسلمت



وساعات بتحس إني زهقت مع إني بخبي إني تعبت

ماتوصلنيش يا حبيبي أقول ده يا ريتني، يا ريتني اتكلمت

ماقدرش أقول لك غير كل طريقة حبك ليا

أو غير عليا ولا فاجئني في مرة وهات لي هدية

واملا عينيا واعمل حاجة أنا مش عارفاها

واملا عينيا واعمل حاجة أنا مش عارفاها، عارفاها

ماقدرش أقول لك حلي الدنيا في عيني وغير فيا

لو مهما كنت قريب مني وكنت قريب ليا

ماقدرش أقول لك شكل حياتنا اللي أنا عايزاها

ما تعرف لوحدك شكل حياتنا اللي أنا عايزاها

ماقدرش أقول لك غير كل طريقة حبك ليا

أو غير عليا، ولا فاجئني في مرة وهات لي هدية

واملا عينيا واعمل حاجة أنا مش عارفاها، أنا مش عارفاها

اعرف لوحدك شكل حياتنا اللي أنا عايزاها، عايزاها

****



(٩)

قلب مكسور (حكاية إخلاص)

(١)

أنا (إخلاص)، سيدةٌ في أوائل الأربعينات، إلىٰ حدٍ كبيرٍ ليس بي شيء مميز.. سمراء البشرة، شعري أسود، ولا أميل إلىٰ تغيير لونه، لطالما فضلت الطبيعة. لا أضع مساحيق تجميل، لست محجبةً ولكن ملابسي محتشمة، وقد أضع غطاءً للرأس. لي أختٌ واحدة (عناد)، تصغرني بخمس سنوات.. هي عكسي في كل شيء، تلبس ملابس مكشوفة قليلًا وتتبع أحدث صيحات الموضة، تضع الكثير من مساحيق التجميل وتلبس عدساتٍ ملونة، ودائمًا ما تصبغ شعرها بألوانٍ جديدةٍ ومختلفة، تعشق التغيير.. لطالما اعتبرتها ابنتي، منذ وفاة أبي وأمي ولم يتبق لي أحدٌ في الدنيا غيرها، وغير زوجي (أنس).

أختي متزوجة من رجل طيب جدًّا -من وجهة نظري-؛ فهو إنسان بسيط ومحترم، لكن شخصيته مختلفة تمامًا عن شخصية أختي عناد، والتي لها نصيب كبير من اسمها، فهي صاحبة شخصية قيادية ومسيطرة.. كانت تعتبر نفسها رجل البيت وصاحبة القرار في كل صغيرةٍ وكبيرة ولأن (أحمد) لم يكن يحب أن يغضبها، فللأسف هي



فسرت احترامه وحبه لها علىٰ أنه ضعف.. ولأنه شخص بسيط وليس لديه طموح -فقد كان موظفًا في أحد المصالح الحكومية-، فلم يستطع أن يحقق لها أحلامها وطموحاتها، أو أن يفي بطلباتها التي فاقت إمكانياته البسيطة بكثير، فلم تكن عناد راضيةً أبدًا بحياتها مع أحمد، دائمة الشكوىٰ من ضيق الحال وضعف الإمكانيات؛ رغم أنني لم أرَ أن أحمد كان يقتصر جهدًا في تحقيق ما تتمناه زوجته بقدر ما يمكن. كنت أشعر داخلي أن عناد تتعمد أن تشعر أحمد بالنقص، عن طريق طلباتها التي كانت لا تخلو من المبالغة في بعض الأحيان، والتفاهة في أحيانٍ أخرىٰ، لأنها طول الوقت تقارن حالها بغيرها؛ مما يجعلها غير راضية عن حياتها، ناقمة عليها، تشعر دائمًا بالدونية وأنها تستحق حياة أفضل بكثير.

علىٰ عكس حياة عناد مع أحمد كانت حياتي أنا مع أنس زوجي رجل الأعمال. أنس صاحب شركة برمجة وكمبيوتر معروفة، وظروفنا المادية في أحسن حال والحمد لله، ولكنه شخص متسلط وأناني (فعلًا.. الحلو مايكملش). ولأنني دائمًا قنوعة بفضل الله كنت راضيةً بما قسمه الله لي، وأعلم أنه لا يوجد إنسانٌ كامل، فكانت حياتي مع أنس حياةً هادئة لا تخلو من المشكلات العادية، التي طالما تغاضيت عنها حتىٰ تستمر الحياة.



وقالوا سعيدة في حياتها

واصلة لكل أحلامها

وباينة عليها فرحتها

في ضحكتها وفي كلامها

وعايشة كإنها في جنة

وكل الدنيا مالكاها

****

(٢)

منذ فترةٍ انتقلنا أنا وأنس إلىٰ منزل جديد (فيلا في حيٍّ راقٍ لها حديقة جميلة وحمام سباحة مغرٍ)، ومنذ ذلك الحين لاحظت أن زيارات عناد لي زادت عن ذي قبل، كما زادت شكواها لي ولأنس من أحمد.. وأصبحت تنعته دائمًا بالفاشل لأنها تقارنه دائمًا بأنس.

وجدت أن أنس يستمع إلىٰ شكواها ويوافقها علىٰ ما تقول؛ بل ويزيد الطين بلةً بأن يلومها علىٰ تحملها لمثل هذه الحياة البائسة التي لا تليق بها. ثم بدأ يصدق علىٰ كلامها بأن أحمد فاشل وغير طموح وأنها (تستاهل حد أحسن.. يعيشها أميرة). لمعت عين عناد عند سماعها كلام أنس وكأنما قابل هوىً في نفسها.



حاولت أن أرفض أفكارهما وأقنعها بأنه ليس هناك إنسان كامل، تكفي طيبته ونزوله علىٰ رغباتها وأنه محترمٌ مهتم بها. للأسف جاء ردها صادما لي بكل المقاييس:

- طبعًا وانتي هتحسي بيا إزاي وانتي عايشة في النعيم ده وسايبة أختك محتاجة.

بعد كلام أنس لعناد اتصلَتْ بأحمد وعايرته بفقره وقلة ذات يده، وأخبرته أنها لن تعود إلىٰ البيت مرةً أخرىٰ طالبة الطلاق. حاولت التدخل للإصلاح بينهما وإثنائها عن فكرة الطلاق، ولكنها فكرت في أنني لا أريدها في بيتي.

شكوت لأنس فقال لي:

- انتي غلطانة.. مشاكلهم بينهم، ماتتدخليش، ولو هي عايزة تتطلق هي حرة، وبيتنا مفتوحلها طبعًا. البيت كبير وعادي لما تعيش معانا. أنا مش متضايق، أختك هي أختي.

وحدث ما توقعناه جميعًا.

تطلقت عناد، وعاشت معي ومع أنس. استمتعت عناد بحياة الرفاهية في بيتي والتي طالما حلمت بها، كانت دائمة الخروج والتسوق.. وعندما أعلِّق يرد أنس:

- سيبيها تعيش حياتها، لسة صغيرة.



ثم موجهًا كلامه إليها وهو يغمز لها بعينيه:

- براحتك يا دودو.

تضحك عناد بصوت عالٍ ضحكة لافتة:

- ميرسي يا أبيه.
- لا أبيه إيه، خلاص انتي تقوليلي أنس علىٰ طول، وأي حاجة تحتاجيها اطلبي علىٰ طول ماتتكسفيش.

ثم نظر لي أنس مع ابتسامةٍ لم أفهمها وقتها.

فرحت لأن البيت أصبح يشع بالسعادة، أنس أصبح يقضي وقتًا أكبر معنا في البيت، أصبح يلتزم بمواعيد الوجبات الأساسية.. أخيرًا أصبحت لديه إجازة أسبوعية ليقضيها معنا، لم أكن أتخيل أن يأتي الوقت الذي يعرض هو فيه علينا الخروج دون أن أحتاج إلىٰ أن أتوسل إليه لساعات وربما لأيام، ولم أكن أنال سوىٰ الرفض القاطع.

***

(٣)

بدأ فصل الصيف والجو لا يطاق، وأصبحت ملابس عناد بالبيت أكثر جرأة. زادت تعليقاتي ولكنني لم أجد منها سوىٰ التجاهل وكأنها تعاندني، أصبحت علاقة أنس وعناد حميميةً أكثر من اللازم؛ فقد لاحظت أن المزاح أصبح لا يخلو من التلامس، وخاصةً عند نزولهم



إلىٰ حمام السباحة، فقد كانت تتعمد عناد لبس المايوه البكيني عندما يكون أنس متواجدًا.

لم أتحمل أكثر من ذلك فتشاجرت مع عناد عندما خرج أنس:

- عناد لو سمحتي، أنا اتكلمت معاكي قبل كده في طريقة لبسك، بالذات وأنس موجود. وكمان هزارك الزايد عن الحد معاه وصوت ضحكك العالي.. أنا عايزة أعرف قصدك إيه باللي انتي بتعمليه؟
- يعني إيه قصدي إيه؟ هو أنا كده، أنا مش مقفلة زيك، ومش قصدي حاجة.. أنا بتعامل عادي، ويا ستي لو غيرانة مني اعملي زيي.

ضحكت ضحكةً عاليةً وهزت كتفها في لا مبالاة، وأولتني ظهرها مبتعدة.. لكنني أوقفتها عندما وضعت يدي علىٰ كتفها قائلة:

- لأ، ده بيتي وأنا اللي أحدد القواعد هنا، ولو مش هتلتزمي بيها يبقىٰ ماتقعديش هنا.

رفعت حاجبيها ولوت شفتيها ونظرت بحقد:

- انتي بتطرديني؟!
- لا أنا بقولك الصح، ولو مش عايزة تلتزمي بيه يبقىٰ تعيشي لوحدك.



- طيب يا إخلاص، أنا ماشية. هروح أقعد في شقة ماما وبابا الله يرحمهم.. بس ليا كلام تاني مع أنس.
- كلام تاني إيه؟ واسمه أبيه أنس. انتي واضح إنك نسيتي نفسك. مفيش كلام مع أنس أصلًا.

نظرات عناد إليَّ في تلك اللحظة لن أنساها ما حييت، شعرت بحقدٍ وشرٍّ غريب يتطاير من عينيها، وكأنها تهددني أن موقفي هذا لن يمر علىٰ خير.

جهَّزت حقيبتها وبعد ساعةٍ خرجت من بيتي دون أية كلمة.

بعد خروجها فكرت كثيرًا.. ماذا ستفعل عناد وحدها في بيتنا القديم؟ كيف ستعيش؟ فهي لا تعمل وليس لديها مصدر دخل، هل كنت قاسيةً معها؟ فهي ما زالت صغيرةً متهورة.

هل يجب أن أذهب إليها وأعتذر لها عما بدر مني؟ ولكنني لم أخطئ؛ بل هي من يجب أن تعتذر.

هل أكلمها وأطلب منها أن تعود مرةً أخرىٰ؟

جاء أنس إلىٰ البيت في غير موعده، ووجدته متحفزًا وعصبيًّا يبحث عني مناديًا:

- إخلاااص. إيه اللي حصل مع عناد ده؟ انتي مجنونة علشان تطرديها من بيتي؟



رددت بصدمة:

- أطردها؟ بيتك؟ إيه الكلام ده؟ وبعدين انت بتزعق ليه أصلًا؟

خفض من حدة صوته قليلًا قائلًا:

- عناد جاتلي الشركة ومعاها شنطة سفر، وكانت منهارة جدًّا.. قالت لي إنك طردتيها من البيت علشان متخيلة إن في حاجة بيني وبينها.

قلت ذاهلةً:

- إيييييه؟
- عمومًا مش عايز أسمع حاجة دلوقتي، اتصلي بها واطلبي منها ترجع فورًا.
- لكن...
- من غير لكن.. اتصلي بيها حالًا، لأ هتصل بيها أنا.
- ألو.. عناد، إخلاص عايزة تعتذرلك بنفسها.

حتىٰ الآن لا أستطيع أن أصدق ما حدث، أشعر بضغطٍ عصبيٍّ شديدٍ بسبب موقف أنس غير المبرر بالنسبة لي. قررت الخروج للتسوق حتىٰ أبتعد عن ضغط المنزل قليلًا.

تمشيت وسط المحلات ولكن ذهني كان مشغولًا بأمور كثيرة؛ فلم أرَ أي شيءٍ من المعروض، وبالطبع لم أشترِ أي شيء.



عندما عـدت إلـىٰ المنـزل وجـدت سـيارة أنـس بـالمنزل مـرة أخرىٰ.. لماذا أتي باكرًا اليوم؟

دخلت إلىٰ المنزل في صمتٍ وصعدت مباشرةً إلىٰ غرفتي ولكنني لـم أجد أنس. اندهشت وقررت أن أسأل عناد عنه؛ فيبدو أنها تعرف عنه هذه الأيام ما لا أعرفه، وما كدت أقترب من باب غرفة عناد حتىٰ سمعت همهماتٍ غير مفهومة. انقبض صدري وسمعت دقات قلبي المتسارعة، ارتعشت يداي علىٰ مقبض الباب قبل أن أفتحه لأجدهما معًا، في أحضان بعضهما، عاريان، أحمر شفاهها يغطي وجهه.. عطره وعطرها امتزجا بالغرفة.

لم أستطع إلا أن أغمض عينيَّ ولم أفتحهما مرة أخرىٰ إلا لأجد نفسي في غرفةٍ بيضاء بداخل المشفىٰ. سمعت من الطبيب:

- حالة انهيار عصبي.

لم أكن لأتكلم؛ فصدىٰ صوت عقلي ملأ كياني بسؤال وحيد: لماذا؟

عناد! أختي، بل ابنتي.. كل ما تبقىٰ من عائلتي.

أنس! أنسي، وسندي.. وكل ما لي بعد أبي وأمي!

لم أقصِّر مع أيٍّ منهما، علىٰ العكس.. بل قصرت مع نفسي.

لن يتخيل أحد كسرة قلبي وما أشعر به من قهر.



بيني أنا وبينك خلاص في شي انكسر

ما بسألك من انهزم من انتصر

همي أنا بالليل ينساني الألم

دوب مع النسيان لحظات الندم

لمين بشكي

هم قلبي اللي انظلم

صعبة النغم ما يحن ع غياب الوتر

بيني أنا وبينك خلاص في شي انكسر

ما بسألك من انهزم من انتصر

لو باقي عندي منك شوية أمل

بصبر عليك وبحمل اللي ما بينحمل

لكن انت مليت وشو بخاف الملل

أهون عليَّ اللوم يا محلي الزعل

بيني أنا وبينك خلاص في شي انكسر

ما بسألك من انهزم من انتصر

صوتي ندهلك ما ترك عندك صدىٰ

في شي انتهىٰ بيناتنا لما ابتدا

بعدك أنا شو بخاف ما صدق حدا



يمرق عليَّ الشوق ويهرب ع الهدىٰ
بيني أنا وبينك خلاص في شي انكسر
ما بسألك من انهزم من انتصر

بعد ثلاثة أسابيع من البقاء وحيدة خرجت من المشفىٰ، لم يأتِ أحدهما ولو مرة، لم يهتما بمعرفة ما حدث لي.. لم أكن أريد رؤيتهم أو اهتمامهم، ولكنني ما زلت أتألم مما حدث. ربما انتظرت اعتذارًا أو محاولةً للتفسير، أو ربما شعورًا بالندم.. لكن وكأنهما قد فرحا بالتخلص مني. ذهبت إلىٰ منزل أبي لأجده فارغًا مثل قلبي وعقلي معًا، وجدت رسائل في صندوق البريد باسمي يبدو عليها أنها حديثة العهد، ممن؟ لا يعرف أحد أنني سآتي إلىٰ هنا.

فتحت الرسالة الأولىٰ فوجدتها ورقة طلاقي.

أما الأخرىٰ فكانت رسالةً من عناد بصورةٍ لعقد زواجها من أنس.

حسبي الله ونعم الوكيل.

****



(١٠)

كلام ماتقالش!

أنهت (ميادة) طعام الغداء في وقتٍ قياسيٍّ بعد عودتها من العمل، خرجت من مطبخها الصغير تتصبب عرقًا رغم أنها قد تحممت منذ ساعةٍ فقط، ولكن حرارة المطبخ عالية؛ حيث لا يوجد به أي مصدرٍ للتهوية إلا الشباك الصغير المطل علىٰ المنور، وما زاد من حرارة المكان استخدام الموقد والفرن لإنجاز مهامها بالمطبخ سريعًا.
قامت ميادة بعد عودتها من العمل بقلي السمك وعمل الأرز والسلطة وغسلت المواعين، لم تنس سلطة الطحينة التي يعشقها زوجها، ولم تنس سلطة البطاطس المسلوقة التي تحبها (ندىٰ) ابنتها الصغرىٰ، وسلطة الطماطم المتبلة التي طلبتها (جنىٰ) أبنتها الكبرىٰ، إلا أنها لم تقوَ علىٰ إنجاز سلطة البنجر التي تحبها هي، واكتفت بأكل الطعام دون استمتاع بمقبلاتها المفضلة، بعد أن فصصت السمك لابنتيها قبل أن تبدأ طعامها، واطمأنت أن طعامهما جاهز.
خرجت ميادة إلىٰ الصالة لتستمتع بهواء المروحة قليلًا، مع إراحة قدميها وظهرها الذي



أنهكه التعب والوقوف. وما إن جلست حتىٰ نظر إليها زوجها (محمد) نظرةً توحي بأنه لا يحبذ أن يراها ترتاح، ولسان حاله يقول: «ما هذا؟ أحقا ستجلسين؟»

لكنه كان يريد أن يقول:

- أخيرًا.. لكن كان من الممكن أن تجهزي الشاي قبل أن تجلسي.

نظرت هي نظرةً بائسة إليه قبل أن تقوم مرة أخرىٰ. ففسر نظرتها وكأنها تقول له: «ألا يعجبك أي شيء؟ ليتك تساعدني بدلًا من أن تقضي وقتك في اللعب علىٰ الهاتف»

ولكنها كانت تريد أن تقول: «ارحمني وقدِّر تعبي، ورغم ذلك لن تهون علي»

بدأت ميادة في تجهيز أكواب الشاي، ونادت علىٰ جنىٰ وندىٰ لمساعدتها، ولكنها لم تتلقَ أي رد. ذهبت ميادة إلىٰ غرفة البنات وفتحت الباب لتجد البنتين ممسكتين بهاتفيهما، ولم ينتبها إلىٰ ندائها، بينما الحجرة في منتهي الفوضىٰ. فأشارت بيدها أن كفىٰ، وأشارت إلىٰ الحجرة ثم أشارت إلىٰ البنات أن يتبعاها للمطبخ. تركت ندىٰ هاتفها في الحال وتبعت والدتها، بعد قليل تبعتها جنىٰ ببطء وغنج،



فلطالما اشتهرت جني ببطئها وبرودها في التعامل. أخذا صينية الأكواب في صمت ثم جلست.

استمر محمد في اللعب على الهاتف غير مكترثٍ بالشاي. جلست ميادة ونظرت لمحمدٍ نظرة استغراب؛ فهومن كان يستعجلها منذ قليل لتأتيه بالشاي، والآن لا يبدي أي اهتمام بالأكواب التي وضعت أمامه، نادت عليه ميادة:

- محمد!

كانت تقصد أن الشاي سيبرد، بينما توقع محمد أنها تنتقد لعبه على الهاتف لأنها لا تصدق أنه يعمل حقًّا.

فقام متأففًا ليتناول كوبه من الشاي.

في مظهر يوحي بأسرةٍ سعيدةٍ تقضي الوقت معًا في غرفة المعيشة، يشربون الشاي معًا ويتجاذبون أطراف الحديث فيما بينهم، دون أن يعلم أي أحد عن كم الأفكار المتصارعة بداخل كل منهم؛ فها هي ميادة تفكر: «لقد اكتفيت حقًّا، لقد أصبحت حقًّا خادمة هذا المنزل دون أي تقدير من زوجي أو من بناتي. يجب أن ينتهي كل هذا، لن أتحمل أكثر، هل عليَّ أن أتكلم معه وأشرح له سبب غضبي؟ أم أكتفي بالصمت وعدم التعامل معه؟ أم أعاتبه؟»

وها هو محمد:



«ما هذا الشاي؟ إنه ماسخ. لقد أصبحت ميادة كسولةً وتقوم بواجباتها دون نفس، لقد سئمت من هذه الحياة المملة. لم تعد تفعل شيئًا غير الشكوىٰ، هل عليَّ أن أترك حياتي هنا وأبحث عن سعادتي في مكان آخر مع أناس آخرين؟»

وجنىٰ:

«أمي تعلم أنني لا أحب الشاي باللبن، ومع ذلك تحضره لي يوميًا بحجة أنني ما زلت صغيرة والشاي مضر بالنسبة لي، لن أشربه اليوم؛ فهي لا تعبأ بما أحب وما أريد. طبعًا، فهي دائمًا ما تشعرني بأنها تحب ندىٰ أكثر مني»

أما ندىٰ:

«لقد حرمتني أمي من اللعب علىٰ الموبايل اليوم بسبب فوضي حجرتنا.. إشمعنىٰ أنا؟ أنا أريد أن ألعب. هذه ليست حجرتي وحدي، لماذا لم تحرم جنىٰ من الموبايل مثلي؟ طبعًا فهي تحب جنىٰ أكثر مني.. هذا ظلم»

أنهىٰ الجميع الشاي دون أية كلمة، ثم قام كلٌ منهم لحجرته تاركين ميادة تنظف وراءهم وتلملم الأكواب الفارغة، ليتفرغ كلٌ منهم لما يفعله، بينما تغرق ميادة في مسئوليات المنزل وحدها.



قضت ميادة يومها تفكر، كيف عليها أن تغير روتين حياتها الذي أفقدها آدميتها؟

هل عليها التحدث مع زوجها وبناتها وتقوم بتخصيص مهامٍ يوميةٍ لكل منهم لتخفف عن نفسها أعباء المنزل، وليشعر الجميع بأهمية المشاركة حقًّا؟

هل عليها أن تضعهم أمام الأمر الواقع جميعًا بتخليها عن مسئولياتها كافة، حتىٰ يشعروا بتعبها ويقدروها حق قدرها؟

بعد تفكيرٍ عميقٍ استقرت علىٰ اختيار الحل الأول.

اجتمعت ميادة في اليوم التالي بزوجها وبناتها عند عودتها من العمل.

سألها البنات:

- ماذا هناك يا أمي؟ وأين الغداء؟ ولماذا تجتمعين بنا هكذا؟
- اليوم سأضع حدًّا لاستهتاركم بي وبعملي وبمجهودي، اليوم سأنهي كسلكم هذا.

أو لا.. لن أطبخ غداء اليوم، سيقوم والدكم بالتصرف اليوم في هذا الأمر.

فتح محمد فاه في صدمة:

- ماذا؟ ماذا تريدين مني أن أفعل؟ هل تريدينني أن أطبخ؟



ليقول بداخله: «لم يتبق سوىٰ أن أطبخ وأغسل! هل عليَّ ترك عملي لأتفرغ لعمل المنزل؟»

- وماذا في هذا؟

لتكمل ميادة في عقلها: «طبعا لقد ضمن وجود خادمة بالمنزل، ولكنني لن أتهاون في حقي فأنا أعمل بالخارج مثله تمامًا»

- أنا رجل؟
- تقصد أنك رجل مصري، في أوروبا والدول المتقدمة الرجال يساعدون النساء في كل شيء، وعموما لن أثقل عليك.. يمكنك طلب الطعام جاهزًا.

صمت محمد ولسان حاله يقول: «غرامة محترمة، ولكن بدلًا من أن أجد نفسي بعد قليل أنا ربة المنزل»

أجابت البنات بحماس:

- حقًّا؟ هذا خبر رائع.

نظرت ميادة إليهما قائلةً:

- والآن دوركما.

جنىٰ وندىٰ، عليكما الجلوس معًا والاتفاق علىٰ تقسيم المهام المنزلية وأنا في العمل، لأصل إلىٰ المنزل فأجد كل شيء في مكانه.



قالت جني في عقلها: «ما هذا؟ نحن في إجازة الصيف. لم عليَّ أن أفعل أي مجهود؟ لماذا عليَّ أن أتعب نفسي هكذا؟ مالي أنا ومال الأعمال المنزلية؟»

وقالت ندي: «الأم هي من يجب أن تعمل بالمنزل، هذا بيتها؟ عندما أكبر لن أجد من يساعدني فلماذا أفعل هذا الآن؟»

أنهت ميادة الحوار:

- هل هناك اعتراض؟

أجاب ثلاثتهم بامتعاض:

- لا.

وذهب الجميع للاستمتاع بآخر أيام الراحة قبل البدء بالمشاركة في الأعمال المنزلية، بدءًا من الغد.

****



(١١)

مش حاسس إنِّي متجوز

جلست أمس أمام التلفزيون أشاهد بعض الأغاني (طبعًا هذا ممنوع في حضـور زوجي، والمفـروض في غيابـه أيضًـا، ولكنـني أحيانًـا أخـالف قواعـده في الخفـاء). اسـتمعت لأغنيـة (نانسـي عجـرم) "لا تعتـذر"، وكانت المرة الأولىٰ التي أشاهد فيها هـذا الكليـب، تخيلتني وزوجـي أبطال هذا الكليب.

ما تعتذر، ما تعتذر

اللي عملته في ما إله عذر

ما تعتذر آه ما تعتذر

اللي عملته في ما إله عذر

شاهدته في خيالي وهو يصرخ كعادتـه: «انتـي مـش زوجـة، انتـي مـش سـت أصـلًا. فـين هـدومي؟ فـين الأكـل؟ مسـحتي جزمتـي؟ كـويتي هدومي؟ غسلتي الشرابات؟ مش لاقي البنطلون...»

تذكرت الصراخ المستمر بطلبات لا نهاية لها، حتىٰ أثناء تعبي عنـدما كنت لا أستطيع الحراك بعد العملية بدون أي تقدير لأي ظروف.



أنا بعرف إنك

راح تجرحني من جديد

أناني ما بتعشق غير حالك

بموت وما برجع لك

خليك عني بعيد

أتذكر أطباق الطعام وهي تتطاير من فوق المائدة، والطعام يغطي الأرض والمقاعد؛ لأن الملح قليل في الطعام. أتذكر ضربه للحائط بقوةٍ ليبث في قلبي الرعب (الشيء الذي ينجح فيه دائمًا)؛ لأنه وجد أحد فردتي الشراب الكحلي ملفوفة مع واحدة من فردتي الشراب الأسود، في خطأ غير مقصود مني. تذكرت نفسي وأنا مسحولةٌ أرضًا بعدما أمسك بشعري ليجرني علىٰ الأرض عقابًا لي لأنه عاد من العمل ولم يكن الغداء قد انتهىٰ بعد.

مع تدفق هذا الكم من الذكريات المؤلمة مرةً واحدةً لم أشعر بيدي وهي ترتجف، أو بنزيف أنفي، إلا عندما تنبهت للدماء الساخنة علىٰ وجهي. قدماي ترتعشان لدرجة أنني لا أستطيع الوقوف عليها بسبب الخوف الذي سيطر عليّ، لن أستطيع حتىٰ الهروب إن قررت.. لن أستطيع، لن تحملني أرجلي الضعيفة. تحمست كثيرًا وأنا أشاهد نهاية



الكليب، رأيتها تنفذ ما حلمت به دائمًا ولكني لم أجرؤ على تنفيذه أبدًا، قدرة نانسي على الهروب وترك كل شيء مؤذٍ خلفها، قوة لم تحملني قدماي يومًا لتنفيذه.. ولكن على الأقل سأحاول أن أواجه زوجي ولا أستسلم له، ربما كان استسلامي لأذيته السبب في استمراره بالأذى.

ماذا سيحدث إن واجهته؟ هل سيغضب؟ هو غاضب دائمًا. هل سيصرخ؟ هو دائم الصراخ. هل سيتهور ويتمادى ويضربني؟ لن تكون المرة الأولى. ربما إذا واجهته سيعلم أنني لست الضعيفة التي تعوَّد عليها وأنني قوية، ربما يخاف مني.. فلنجرب.

لقد جربت الصمت والحزن والبكاء والصراخ، ولكن في كل مرة لا شيء يتغير، يمكن تأتي القوة بنتيجة مثمرة.

حدك تعبت

من عمري حرقت

رجعلي سنيني ضيعان الوقت

من حدك تعبت آه

من عمري حرقت

رجعلي سنيني ضيعان الوقت



سمعت صوت مفتاحه يتحرك ليفتح باب الشقة، ولأول مرة لا أجري لأطفئ التلفزيون أو حتىٰ أخفض صوته وأغير المحطة لإحدىٰ المحطات الإخبارية المسموح لي بمشاهدتها. تركت قناة الأغاني التي تتسبب له بعصبية كما يزعم، لم أهرول لباب الشقة متعثرة في طرف جلبابي الطويل لاستقباله، بل لم أتحرك من علىٰ الأريكة من الأساس.. تصنعت البرود، تخيل أنني لم أشعر بدخوله فبدأ يسعل بصوت أجش لأنتبه، ولكن مرة أخرىٰ لم أتحرك.

اقترب مني:

- في إيه؟
- مفيش.
- أنا مش قولت ١٠٠ مرة القنوات دي ماتشتغلش في بيتي؟
- أنا ماقولتلكش انت اللي تسمعها، وبالنسبالي أنا أسمع اللي أحبه. [خرج صوتي مرتعشًا]
- بتقولي إيه؟ إزاي اتجرأتي تقولي كده؟ [جاء صوته ذاهلًا فاتحًا فاهه]
- أتجرأ؟ ده أنا؟ انت اللي اتجرأت عليا واتماديت، أنت اللي اديت لنفسك حق إنك تتحكم فيا وتؤمرني أعمل إيه وماعملش إيه، بأي حق؟! انت مش دايمًا بتقول إني "مش



ست".. مش دايما بتقول: "أنا مش حاسس إني متجوز"؟!

تمام، اعتبر نفسك مش متجوز بقىٰ وبطل تتحكم فيا.

أنا مش حاسة إني متجوزة، انت ماتصلحش غير أنك تكون سجَّان، انت أصلًا ماتعرفش يعني إيه زواج.. الزواج مودة ورحمة، ودي الحاجات اللي انت عمرك ماعرفتها.

مش هكون سجينة بعد كده، هسيبك وحيد ومكروه وماحدش هيهتم بيك أو حتىٰ يعبرك بعد النهارده، هسيبك تموت وحيد وأنا هعيش حرة وسعيدة.

دي فعلا النهاية اللي تستحقها.

في الخلفية تغيرت الأغنية في التلفزيون وبدأت (إليسا) تغني:

وجعت قلبي بس الوجع هيخف مش بإيديك

هيعيش في قلبي لا ده الوجع هيلف يرجع ليك

الوجع عمره ما بيعيش بالسنين

وقت الوجع مايزدش أكثر من يومين

وكل يوم بيقل حبه عن اللي قبله

ومش هقابلك تاني يعني مش هقابله

هينسىٰ قلبي ودور الدموع هيلف ييجي عليك

وجعت قلبي بس انت مش بتحس بالموجوع



قلب اللي زي وقت الوجع مش شرط يبكي دموع

الوجع عمره ما بيعيش بالسنين

وقت الوجع مايزدش أكتر من يومين

وكل يوم بيقل حبه عن اللي قبله

ومش هقابلك تاني يعني مش هقابله

هينسىٰ قلبي ودور الدموع هيلف ييجي عليك

عندها ذهبت لأجمع حاجياتي سريعًا لأترك المنزل قبل أن يفيق من صدمته، وأخيرًا نجحت.. تركته.. وأخدت قراري لأبدأ حياةً جديدةً بعيدةً عن القهر، شكرًا نانسي.

****



(١٢)

النهاية

(١) مجرة درب التبانة

في صباح أحد الأيام استيقظ كوكب المريخ ليلتقي بأصدقائه كوكبي الزهرة والأرض كما يفعل يوميًّا.

كان كوكب الأرض دائم الشكوىٰ لأصدقائه من سكانه، فكان دائمًا ما يحكي عن التلوث والدمار اللذين يسببهما سكانه له؛ فهم لا ينفكون يرمون المخلفات في مياه البحار والمحيطات ويطلقون الأدخنة والعوادم التي تلوث الهواء ويقطعون الأشجار في الغابات، وغير ذلك من صور التلوث.

كوكب المريخ: صباح الخير يا أرض، صباح الخير يا زهرة، يوم جديد سعيد عليكم.

كوكب الأرض (بامتعاض): صباح الخير.

كوكب الزهرة (بكسل): صباح الخير إيه؟! قصدك مساء الخير. انتوا بتبدأوا يوم جديد، لكن أنا لسة اليوم عندي ماخلصش. انتوا ناسيين إن يومي أطول من يومكم بكتير؟



كوكب الأرض والمريخ (بضحك): انتي علىٰ طول مش عاجبك حاجة كده؟

كوكب الزهرة: اضحكوا.. اضحكوا ما انتوا شبه بعض ومش حاسين بيا.

كوكبي الأرض والمريخ أكملوا الضحك.

كوكبي المريخ والزهرة: طيب قوليلنا انتي يا أرض مالك؟! شكلك متضايقة علىٰ الصبح.

كوكب الأرض: أخاف أقولكم تقولوا عليا شكاية.

كوكبي الزهرة والمريخ: لا يا ستي قولي ما تخافيش، إحنا عارفين إن انتي أصلا شكاية ههههههه.

كوكب الأرض (عابسة): بصراحة تعبت بقىٰ من سكاني، الناس دي مش عايزة تتعظ وتحمد ربنا علىٰ نعمة الكوكب اللي ساكنين فيه؟ لا دول عايشين بس علشان يدمروني. الناس دي ظالمة! ومش عارفة أعمل معاهم إيه!

كوكبي الزهرة والمريخ: إيه يا ستي عملوا إيه تاني؟ بصراحة انتي مستحملاهم بقالك ملايين السنين رغم الأذىٰ اللي مسببينهولك.

كوكب الأرض: طبعًا انتوا عارفين التلوث اللي هما عاملينه للمياه والهواء والتربة، وكمان الثقب اللي اتسببوا فيه في غلافي الجوي اللي ربنا خالقه علشان يحميهم.



كوكب المريخ: أغبياء!

كوكب الأرض: ده غير إنهم بدل ما يقللوا تلوث الهواء لا كمان بيقطعوا الشجر اللي بينقي الهواء، يعني تلوث مضاعف.

كوكب المريخ: مش بقولك أغبياء!

كوكب الزهرة: ماشي يا أرض بس الكلام ده بقاله كتير أوي.. إيه الجديد؟

كوكب الأرض: الجديد إنِّي مش قادرة أستحمل خلاص، جسمي بدأ ينهار، مش مستحملة التلوث اللي عاملِّي سخونية في جوي (اللي قال إيه بيسموه احتباس حراري)؛ فشوية التلج اللي كانوا عندي في القطبين عمالين يسيحوا وهيغرقوني ويغرقوهم معايا.

كوكب الزهرة: ياه!

كوكب المريخ: يا نهار أبيض!

كوكب الأرض: وكمان طبقاتي الداخلية مابقتش مستحملة، فكل شوية زلزال هنا وبركان هناك. أنا بقيت حاسة إنِّي طول الوقت تعبانة من الضغط اللي عليا ومحدش حاسس بيا.

البني آدمين بقوا مغرورين جدًّا، ربنا بيديهم العلم والقوة وبدل ما يستخدموا العلم ده في زيادة الإنتاج والتطوير وتحسين حياتهم، بالعكس، بقوا بيستخدموه في أذية غيرهم.



تخيلوا شعب بيجهز قنبلة نووية علشان يبيد بيها شعب تاني!

كوكب الزهرة: أووه! هما مش عارفين مخاطر استخدام النووي؟

كوكب الأرض: عارفين ومصرين علىٰ الدمار.

طيب عارفين أن في دول بتعمل تجارب لعمل فيروسات وأوبئة تنشرها في العالم لإبادة ناس بريئة مالهاش ذنب في حاجة علشان بس تفرض سيطرتها علىٰ العالم؟!

كوكب المريخ: لا! الناس دي لغت كل تفكير عقلاني؟ هو ربنا خلق لهم العقل علشان يصلحوا بيه العالم ولا علشان يفسدوا بيه؟ مش كفاية وباء (الكورونا) اللي انتشر سنة ٢٠٢٠ وقضي علىٰ أعداد كبيرة منهم؟! مش بيتعظوا ويرجعوا لربنا، لا.. بيزيدوا فيها.

كوكب الأرض: مش عارفة أقولكم إيه ولا إيه من المهازل اللي أنا شايفاها، تصدقوا إن في جنس من البشر مقتنع تماما إنه الأفضل (مش عارفة علىٰ أي أساس) وادىٰ لنفسه الحق أنه يبيد باقي الأجناس اللي هو شايفهم أقل منه؟

كوكبي الزهرة والمريخ: كفاية! مش قادرين نسمع! مش ملاحظة إن الكل عايز يبيد الكل! هو مفيش بشر مؤمنين؟ مش عارفين إن ربنا



يقدر يبيدهم كلهم في لحظة بعيدًا عن القوة والنفوذ؟ مش عارفين إن ربنا بس اللي ليه الحق ينهي حياة إنسان؟

كوكب الأرض: [بكاء] إهئ إهئ إهئ...

كوكب الزهرة: لا لا، ماتعيطيش.

كوكب المريخ: معلش يا أرض، وإحنا اللي كنا بنحسدك علشان انتي الوحيدة فينا اللي عليكي سكان مونسينك وبتتفرجي عليهم، ومش حاسة بالوحدة زينا. ده الموضوع طلع صعب فعلًا. ربنا معاكي ويعينك، ربنا قادر ينقذك من الناس اللي مش عارفين قيمة كوكبهم دول.

كوكب الأرض: يا رب، انقذني من سكاني.

***

(٢) النيزك

ربنا عالم بأحوال الكون كله، يعلم كيف دمر الإنسان كوكبه الذي يسكنه. كيف لم يحفظ الإنسان نعم ربه عليه؟ كيف لم يتعظ الإنسان مما حدث على الكوكب منذ ملايين السنين؛ مما أدى إلى انقراض أنواعٍ كثيرةٍ من الكائنات، وإنهاء حياة شعوب، وتغيير شكل الكوكب بأكمله.

فكان الدرس القاسي.



اليـوم هـو وقـت اسـتجابة الله لـدعاء كوكـب الأرض، سـترىٰ الأرض بعينيهـا انتقـام الله ممـن أذوهـا، سـينتهي عـذابها للأبـد.. ولنـرَ غـرور وجبروت الإنسان في لحظات النهاية.

اليوم.. منتصف شهر يونيو ٢٠٢٨. تحذر جميع القنوات الفضائية من مرور نيزك 1997XF11 بالقرب من كوكب الأرض، وللأسف حدث تغيير طفيف في مسار النيزك ليصطدم بالأرض.. تخيل خطر اصطدام الكوكب بجسم قطره ميل واحد، ويسير بسرعة ٣٠٠٠٠ ميل\ساعة. وكانت صدمةً لكوكب الأرض الذي استيقظ علىٰ هزة التصادم التي وصفتها كل القنوات الإخبارية بأن هذا الأمر مشابه لانفجار قنبلة بقوة مليون ميجا طن، ورغم أن التداعيات كانت في منتهي الألم لكوكب الأرض؛ إلا أنها سوف تخلصه من كل آلامه في المستقبل وتنقذه من البشر، استجابةً لدعائه.

***

(٣) كوكب الأرض

لحظة الاصطدام:

كوكب الأرض: لا إله إلا الله! إيه ده؟! فيه إيه! إيه اللي بيحصل؟! استر يا رب!



صراخ وهرج ومرج، جري في كل مكان.. جثث، حرائق، أمواج، غرق، دخان، غبار.. الدمار في كل أشكاله.

بدأ كوكب الأرض في الانتباه ليستوعب ما يحدث علىٰ سطحه؛ فوجد النيزك قد اصطدم بغلافه الجوي وتحول إلىٰ أشلاءٍ ضخمة جدًّا.

الطاقة التي تولدت من الاصطدام كانت أكبر ١٠ مليون مرة من طاقة قنبلة (هيروشيما)، هذه الطاقة كانت كافيةً لتسوِّي كل شيء بسطح الأرض في نطاق دائرة يصل قطرها إلىٰ ٢٠٠ ميل.

غبار وحطام في كل مكان، مما أدىٰ إلىٰ حجب أشعة الشمس بالكامل.

معظم الكائنات هلكت، ظلام، رعبٌ هائلٌ سيطر علىٰ كل شيءٍ بعد سقوط جزءٍ فقط من النيزك علىٰ اليابسة.

جزء آخر سقط في المحيط؛ مما أدىٰ إلىٰ موجات عملاقةٍ أغرقت كل شيء في طريقها وفي السواحل المحيطة.

كل ما تعب عليه الإنسان لملايين السنين تم محوه في لحظات، هذه هي قدرة الله. عرف البشر كم هم ضعفاء أمام قدرة الله.. كل الغرور والتباهي قد زال، لن تجد سوىٰ الحسرة والخوف والهلع.

كوكب الأرض كان يشاهد ما يحدث لسكانه بمنتهىٰ الحزن، رغم كل ما فعلوه به إلا إنه حزين علىٰ نهايتهم البائسة.



بعد حوالي ٢٤ ساعة (أي يوم من أيام كوكب الأرض)، كان كل شيءٍ انتهي. انتهت كل أوجه الحياة علىٰ كوكب الأرض، تم محو الإنسان مع باقي الكائنات وكأنه لم يكن أبدًا له وجود، وبكت الأرض كما لم تبكِ من قبل.. بكت فراق من كان ونسًا لها يومًا ما. ورغم الراحة الأبدية التي ستشعر بها الأرض بعد الآن، إلا إنها ستفتقد فوضىٰ ورعونة البشر.

كانت تشعر بالاكتئاب، وقررت أن تجد السلوىٰ مع رفقاء الدرب، درب التبانة، كوكبي الزهرة والمريخ. ستتعلم منهما كيف تحيا دون ونيس، دون سكان، دون حياة علىٰ سطحها.. مثلها مثل باقي كواكب المجموعة الشمسية.

***

(٤) مجرة درب التبانة

يوم جديد بعد الحادث:

كوكب الأرض: يا مريخ! يا زهرة! الحقوني. [في بكاءٍ هستيريٍّ استيقظت علىٰ إثره بقية الكواكب].

كوكب الزهرة: إيه يا أرض في إيه؟ مالك؟ انتي فين من أول امبارح مش شايفينك؟



كوكب المريخ: كان حواليكي هالة فظيعة من الغبار امبارح، قلقنا عليكي.. خوفنا يكون البشر عملوا حاجة تاني آذوكي بيها.

كوكب الأرض: [بصراخ] البشر؟! خلاص مابقاش في بشر، مابقاش في حد علىٰ سطحي.. حصلت إبادة جماعية، مابقاش في أي حياة علىٰ سطحي.. كله راح، كله اتدمر.

كوكبي الزهرة والمريخ: ليه، حصل إيه؟ إزاي ده حصل؟

كوكب الأرض: مش معقول تكونوا ماحسيتوش بالاصطدام اللي حصلي امبارح.. ده كان مدمر.

كوكب المريخ: قصدك علىٰ صوت الانفجار بتاع امبارح الصبح؟ أيوه فعلًا سمعته، بس أنا قولت ده انفجار مذنب أو كويكب أو حتىٰ نيزك في الفضاء عادي يعني.

كوكب الزهرة: وتوقعنا اختفائك بسبب إن التعب زاد عليكي بعد شكوتك لينا من عمايل البشر علىٰ سطحك.

كوكب المريخ: طيب معلش، أنا بردو مش فاهم انتي زعلانة ليه؟ مش دول البشر اللي كنتي بتعاني بسببهم من ملايين السنين؟ مش دول البشر اللي دمروكي وتسببوا في خراب مناطق كتير فيكي وكانوا سبب ألمك ووجعك؟ المفروض تكوني مبسوطة إنك أخيرًا خلصتي منهم.



كوكب الارض: عندك حق. أنا كنت فاكرة زيك، لكن... اللي شفته بيحصل للبني آدمين في آخر لحظات حياتهم صعب، صعب جدًّا الحقيقة. فعلًا عبرة، بس لمين! للأسف خلاص مابقاش في حد فاضل خلاص علشان يتعلم الدرس. مهما حكيت مش هقدر أصورلكم اللي حصل.

وبدأت الأرض تتذكر كل ما رأته في اللحظات الأخيرة من معاناة البشر وعذابهم.

***

(٥) البشر

استيقظ البشر صباحًا علىٰ صوت انفجار مدوٍّ وكأنه صيحة القيامة، صوتٌ مرعبٌ حقًّا، ومن بعد هذا الصوت حلَّت النهاية، التي كان المحظوظون فقط هم من لم يشهدوا رعب عذابها؛ فقد قضت الصدمة الأولىٰ علىٰ عددٍ هائلٍ من البشر وباقي الكائنات الحية، وكانت هذه بداية الأهوال؛ فالأحياء كان يهولهم عدد الجثث الملقاة في كل مكان، كان يرعبهم حجم الدمار الذي لم يتخيله أحدهم يومًا. لا يوجد مكان يأوون إليه، لقد استوىٰ سطح الأرض تمامًا. لا توجد مبانٍ ولا طرق ولا أشجار، ولا حتىٰ أي مظهر من مظاهر الطبيعة التي يعرفونها من جبالٍ أو وديان. أصبح الجميع في العراء محاطين بالجثث والغبار



والظلام، نعم.. ظلام النهار؛ لأن الشمس غابت بعد أن غطىٰ الغبار السماء.. اختفىٰ كل شيء، أصبح الكون بلا أية ملامح، لم تكن هذه نهاية اليوم.. لا إنها فقط البداية.

لاحظ الأحياء من البشر سحبًا سوداء قادمة من اللامكان لتغطي سماء العالم، أصبحت الاهتزازات الأرضية المتعاقبة مصدر رعبٍ جديد، اهتزازات لم يشهد إنسان من قبل شدتها؛ فقد كانت الهزة الواحدة كفيلة بعمل شقوق أرضية تفصل مناطق عن بعضها. كانت الشقوق الفجائية تسحب البشر داخلها، البشر المرعوبون كانوا يجرون بلا هدف، لا أحد يعلم إلىٰ أين يذهب أو مم يهرب، وكما قال تعالىٰ: «يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه»، لا أحد ينتظر أحدًا أو يتعرف علىٰ أحد.

من أكثر المشاهد المرعبة كانت دهس الأطفال في ظل سرعة الهروب من المصير المحتوم.

أما عن البلدان الساحلية فقد كان رعب الإنسان له شكلٌ آخر وهو يحارب الأمواج الهائلة، التي تخطت أقوىٰ تسونامي شهدته البشرية علىٰ مر التاريخ، من حيث ارتفاع أمواجه وسرعتها وقوتها واندفاعها.. كانت أمواجٌ هائلةٌ تغرق كل ما يمر من أمامها أو يعترض طريقها، لا



يهم إن كنت أعظم سباح في التاريخ؛ فمع الاندفاع الهائل للمياه - والذي قد محا بلدان بأكملها- لن تتمكن من البقاء.

منظر الناس وهم يحاربون اندفاع المياه التي تغطيهم وتدفعهم أميالًا في اتجاهات مختلفة، مع اصطدامهم بكل ما تتخيل أن يكون مغمورًا بالماء، سواءً بقايا سيارات، حيوانات، أشجار، مبانٍ، أثاث.. كل شيء وأي شيء يخطر ببالك.

صراخ، صراخ، صراخ..

عذاب ليس له نهاية.

رعب لا يصدقه بشر.

مناداة الناس باسم الله.

حتىٰ غير المؤمنين في مثل هذا الموقف تذكروا قدرة الله ودعوا بانتهاء هذه اللحظات، ورغم أن كل هذا حدث خلال ساعاتٍ معدودة، لكنها بدت للجميع أعوامًا، أعوامًا من العذاب، لا لا، من الرعب.. لا، من الهلع.. لا، ليست هناك كلمات يمكن أن تصف ما حدث.. شيء لم يعشه أو يتخيله أحد من قبل.

كوكب الأرض (بشرود وذهول): ربنا حب يوريكم يا بشر الدمار علىٰ حق، طول عمركم مش عارفين تعيشوا في سلام مع بعض، مش عارفين تحمدوا ربنا علىٰ نعمه. أي حد ربنا يديه



شـوية علـم وقـوة يسـتخدمهم في التـدمير والحـروب بـدلًا مـن التطوير وزيادة الخير.

ده انتـوا كمـان بقيتـوا بتختر عـوا فيروسـات تـدمروا بيهـا نفسـكم قبـل غيركم، كل اللي كنتوا بتفكروا فيه السيطرة والنفوذ وإبادة الأضعف..

مع إني كبيرة أوي وأكفيكم كلكم، ومليانة خير يكفي أجيال كتير جاية.

شايفين عملتوا في نفسكم وفيا إيه؟ يا خسارة!

[ثم تفيق من شرودها] أنا بكلم مين؟ ما خلاص. خلصت. "رفعت الأقلام وجفت الصحف"، ودلوقتي كل واحد بيتحاسب علىٰ اللي عمله.

***

(٦) مجرة درب التبانة

بكاء من الكواكب الثلاثة.

كوكب الزهرة: ياااااه يا أرض! انتي شوفتي وعيشتي ألـم شـديد أوي! ربنا يعينك علىٰ جرحك.

كوكب المريخ: ربنا حنين، معلش. «عسىٰ أن تكرهـوا شيئًا وهـو خير لكم». محدش عارف الخير فين، وربنا عمره ما بيجيب حاجة وحشة. انتي دعيتي إنه ينقذك وأهو ربنا عمل كده علشان يخلصك من البشر، ربنا أذاهم وعذبهم زي ما أذوكي وعذبوكي.



كوكب الأرض: [بكاء]

يا ترىٰ كده خلاص هعيش وحيدة زيكم لنهاية الكون، ولا ربنا هيخلق بشر تانيين يعمروني؟

الثلاثة كواكب ينظرون إلىٰ بعضهم وفي صوت واحد: الله أعلم.

****



الفهرس

****